أريك

ديوان الثقافتين العربية والأرمنية

عدد رقم ٩٣ | السنة الثالثة عشر | يولية ٢٠٢٣



انتهاء معاهدة لوزان (٢٤ يولية ١٩٢٣ - ٢٤ يولية ٢٠٢٣)

المعاهدة التى قضت على آمال الشعب الأرمنى وشعوب المنطقة

الموضــوع **المحتويــات** الصــفحة

الافتتاحية
بعد انتهاء معاهدة لوزان، أين حقوق الشعب الأرمني ؟ رسالة للقوى الكبرى ١
بقلم: على ثابت صبرى

قانون دولي
المسئولية الدولية لتركيا عن الجرائم ضد الإنسانية للأرمن ٣
بقلم: محمد حربي

رؤى
الديمقراطية والمسيحية متوافقتان؟! ٦
بقلم: كيفورك خاتون وانيس

آفاق
العلمين مدينة التاريخ والمستقبل ٩
بقلم: جاكلين جرجس

حوار
حوار مع السيد هراتش كالساكيان مؤسس موقع آزاد-هاي (البوابة الأرمنية في الشرق الأوسط) ١٢
أجري الحوار: عطا درغام

تاريخ
ثقافة الاحتجاج فى مصر المصرى أفندي نموذجاً ٢٠
بقلم: سحر حسن احمد

نوافذ شبابية
التعليم ودوره فى بناء الأمة والدولة ٢٣
بقلم : أشرقت محمد رفعت

فكر
حرب الفلاحين جريمة الفيلق المصري في الحرب العالمية الأولى ٢٦
بقلم: أحمد محمد إنبيوه

دراسات
النواب الأقباط في البرلمان المصري والقضايا العربية١٩٢٤ - ١٩٥٢ م ٣٥
بقلم: د. ملاك نجدى أبوضابة

ذكريات
الإذاعات الأهلية.. قطعة من تاريخ منسي ٣٧
بقلم: هدير مسعد

شخصيات
نايري زاريان شاعر الاشتراكية الأرمنية (ديسمبر ١٩٠٠- يولية ١٩٦٩) ٤٢
بقلم: عطا درغام

وداعا
وداعاً ريتشارد هوفهانيسيان (٩ سبتمبر ١٩٣٢ - ١٤ يولية ٢٠٢٣)(مؤرخ أرمينيا) ٤٦
بقلم: على ثابت صبري

أريك

نشرة غير دورية تصدرها
جمعية القاهرة الخيرية الأرمنية العامة

رئيس التحرير:
علي ثابت صبري

سكرتير التحرير:
عطا أحمد درغام

العنوان: ٢٦ ش مراد بك - صلاح الدين
مصر الجديدة - القاهرة

تليفون: ٢٢٩١٦٤٤٤ (٠٢)

رابط مجلة أريك الإلكتروني:
https://me-qr.com/l/ArekArabic

Scan Me

رقم الإيداع: ١٨٣٧٤/ ٢٠١٠

إعداد وتصميم:
مؤسسة فِكر للتصميم والإعلان
Fikr Foundation For design and advertising .

السادة القراء الراغبون فى الحصول على هذا الإصدار مجاناً، الرجاء موافاتنا بالبيانات الآتية:

الاســـــم : ....
المـــهـــنــة: ....
الـــعـــنـــوان: ....
البريد الإلكتروني : ....
التليـــــفـــون: ....



بقلم: على ثابت صبري

بعد انتهاء معاهدة لوزان، أين حقوق الشعب الأرمنى ؟
رسالة للقوى الكبرى

انتهت معاهدة لوزان رسمياً في ٢٤ يولية ٢٠٢٣، بعد مرور مائة عام بالتمام والكمال، وهناك الكثير من الكواليس التى تُوضح كيف تعاملت القوى الكبرى مع قضايا القوميات، التى طالما ارتكزت عليها فى تنفيذ مطامعها لتقسيم وتوزيع أملاك الدولة العثمانية (رجل أوربا المريض) .

وقعت معاهدة لوزان فى ٢٤ يولية ١٩٢٣م، بشكل يتماشى مع الأماني التى أعرب عنها النواب الأتراك فى الميثاق الوطنى الصادر فى يناير ١٩٢٠م. إذ أنها تعترف لتركيا بحدود مستقرة تستوعب تراقيا الشرقية والأراضي المتنازع عليها فى الأناضول : إقليم أزمير، قيليقية، ساحل البحر الأسود، الولايات الشرقية (الأرمنية). ومما زاد الطين بلة، بأنه لم يرد فى بنود معاهدة لوزان النهائية كلمتا " أرمينيا " أو " الأرمن" ، انما تضمنت نصوصاً عامة حول ضرورة عدم اضطهاد "الأقليات " غير المسلمة (دون تحديدها) فى تركيا فضلاً عن عدم اضطهاد الأكراد القاطنين جنوب شرقي الأناضول .

ورغم عدم دعوة جمهورية أرمينيا (الجمهورية الأولي) لمباحثات لوزان، إلا أن الهيئات والأحزاب الأرمنية فى المهجر واصلت نشاطها فى سبيل استرداد الأراضى المغتصبة. وفى هذا الصدد، قدم " الوفد القومى الأرمنى " برئاسة بوغوص نوبار مذكرة للمؤتمرين تحوى ثلاثة اقتراحات :

١. إنشاء وطن قومي للأرمن مع منفذ على البحر .
٢. إذ تعذر ذلك، يجب العودة إلى الحل المقترح العثمانية إلى الجمهورية الأرمنية.
٣. الأخذ فى الحسبان مشروع كيان قومي للأرمن فى منطقة من مناطق قيليقية .



مباحثات الوفد التركى مع الوفود الأوربية قبيل توقيع معاهدة لوزان ٢٤ يولية ١٩٢٣

بيد أن الوفد التركى رفض رفضاً قاطعاً لا حضور ممثلي الأرمن الاجتماع فحسب بل حتى الاستماع لمطالبهم . وكأنما لم تكن ثمة " قضية أرمنية "، أو لم يكن هناك وجود للأرمن ذاتهم فى الدولة العثمانية . وعلى هذا النحو طمس (الحلفاء الكبار) قضية (الحليف الصغير) على مائدة لوزان وغسلوا أيديهم بدماء الأرمن والأكراد . مما تمخض عنه، إخلاء تركيا من أضخم أقلية غير تركية وترسخت أسس " الجمهورية التركية " فى ٢٩ أكتوبر ١٩٢٣م.

مستقبل ضبابي

تنظر الإدارة التركية إلى أن معاهدة لوزان ظلمت الدولة العثمانية وقلمت أظافرها فى شكل تركيا الحديثة، لذا،

مازالت الأماني التركية قائمة، وخصوصاً بعد اكتشافات الغاز والنفط فى الأراضى غير التركية التى فرضت تركيا سيطرتها عليها فى العراق وسوريا وليبيا إبان ثورات الربيع العربى، والتى بلا شك كان لتركيا دور فيها غير شريف كما تعودنا منها . وذلك تعزيزاً لنظرية العثمانية الجديدة التى أطلقت فى ٢٠٠٩م .

ويعزز هذا الرأى ما ذكره الرئيس التركي رجب طيب أردوغان فى الذكرى ٩٨ لتوقيع معاهدة لوزان كنتيجة لانتصار الأمة التركية من أجل الاستقلال، وبعث برسالة ضمنية مفادها بأن تركيا لن تواصل القبول بما تم الاتفاق عليه قبل قرن تقريباً، قائلاً، وفقاً لوسائل إعلام تركية، إن "أنقرة ستواصل الدفاع عن حقوقها النابعة من القانون الدولي، من دون أي إذعان لتهديد وترهيب وابتزاز بعض الدوائر". وأضاف، "عازمون على دخول عام ٢٠٢٣ الذي سنُحيِي فيه مئوية جمهوريتنا كدولة قوية ومستقلة تنعم بالرفاه اقتصادياً وعسكرياً وسياسياً ودبلوماسياً."

واحتفي أردوغان بتدخلاته في الدول العربية وتجاوزاته ضد مياه تخضع لسيادة اليونان وقبرص في شرق المتوسط، باعتباره نجاحاً، قائلاً، "النجاحات الحاسمة التي حققناها في مختلف الساحات، بدءاً من سوريا وليبيا، مروراً بشرق البحر المتوسط وصولاً إلى مكافحة الإرهاب، هي أوضح مؤشر على إرادتنا حماية حقوق بلادنا ومصالحها."

أضف أيضاً إقدام الرئيس التركي على تحويل متحف آيا صوفيا، الذي بناه البيزنطيون ككاتدرائية في القرن السادس الميلادي إلى مسجد واحداً من الخطوات الرمزية في سبيل استعادة قوة بلاده، بحسب اعتقاده. إذ قال أردوغان في خطاب متلفز في ٢ يولية ٢٠٢٠م، "إن إعادة فتح آيا صوفيا يذكرنا بقوتنا، إنه رمز لقيامتنا وكسر الأغلال الموضوعة على أقدامنا. سنواصل المسيرة ولن نتوقف حتى نصل إلى وجهتنا".

فيما نشرتها صحيفة "ديليليش" الإسلامية التركية، المؤيدة لأردوغان، وأثارت ردود فعل واسعة داخل الشارع العربي، والدوائر السياسية الرسمية وشبه الرسمية، ومراكز دراسات عربية، جاءت تحت عنوان هل هذه الأراضي مقتطعة من تركيا؟"، وتضم الخريطة كركوك، والموصل، وأربيل، من دولة العراق، وحلب، " وإدلب، والحسكة، من الدولة السورية، وأجزاء من بلغاريا، وأرمينيا، بينما أسقطت الخريطة اسم فلسطين مستبدلة إياه بإسرائيل.!

وتبقى كلمة، ارتكزت تسويات ما بعد الحرب العالمية الأولى على تقسيم ممتلكات رجل أوروبا المريض، فقسمت القوى الكبرى الممتلكات وفق المصالح وحسب قوة كل منها. وفرضت واقع جيوسياسى وأدخلت شعوب المنطقة في التيه العظيم، فمسألة مرور ١٠٠ عام على معاهدة لوزان، سُتفيد النظام التركي في شرعنة – من وجه نظره وحسب التصريحات التركية– تواجده في الأراضى المحتلة في العراق وسوريا وليبيا استنادًا لحقوق تاريخية مزيفة، كما يسهل لها الاستيلاء على الفيضان المستمر للنفط في سوريا والعراق وليبيا، والتنقيب عن الغاز في البحر المتوسط، أما بالنسبة لمسألة دعم النظام التركي لأذربيجان في حربها ضد أرمينيا في إقليم ناجورنو كاراباخ (آرتساخ)، يُعزز التواجد التركى بقوة في طريق الحرير الجديد، والتواجد في هذه المنطقة الغنية بالموارد، الغريب أن تركيا تُجيد فعل جرائمها أثناء انشغال العالم بقضايا كبرى، فمثلما استطاعت اقتلاع جذور الشعب الأرمنى من موطنه الأصلي، نجحت أيضاً في القضاء على الشعب الكردي، وأدخلته في مشاكل معقدة للغاية في المنطقة، ذلك وقت انشغال العالم بالحرب العالمية الأولى. أما قضية اقليم ناجورنو كاراباخ، فقد تدخلت فيها تركيا بشكل مباشر لقلب الدفة لصالح أذربيجان، وقت انشغال العالم بجائحة كورونا، وها هى تحاول ممارسة نفس اللعبة خلال انشغال العالم بصراعات كبيرة في مناطق مختلفة، روسيا و أوكرانيا، الصين و تايوان، السودان... إلخ. وذلك لإعلان اكتمال مخطط العثمانية الجديدة، فعلى الشرق الأوسط أن ينتبه وليس العالم، لأنها هذا المشروع سُيغير وضعية الشرق الأوسط جيوسياسياً وديموغرافياً. لذا، فإن انتهاء صلاحية المعاهدة زمنياً لن يغير من الوضع شيء سوى هضم حقوق شعوب المنطقة.



المسئولية الدولية لتركيا عن الجرائم ضد الإنسانية للأرمن

بقلم: محمد حربي
باحث دكتوراه قانون دولي

تُعد الجرائم ضد الإنسانية من الجرائم الكبرى وشديدة الخطورة في القانون الدولى مثلها مثل جرائم القرصنة وتجارة الرقيق حيث إنها تمس المجتمع الدولى بأثره ، وتُعد من القواعد الآمرة في القانون الدولى تخضع في المحاكمات والعقاب عليها للاختصاص العالمي فيمكن لأى دولة أن تمارسه، وتترتب عليه آثار مدنية وجنائية وكذلك المسئولية الدولية على الدولة.

فتفعيل وإسناد المسئولية الدولية في الجرائم ضد الإنسانية وضد أحد أشخاص القانون الدولى يترتب عليه توقيع الجزاء الدولى المناسب ، وقد يكون هذا الجزاء ذات طابع مدنى مثل التعويض عن الضرر في صورته العينية أو المالية أو ذات طابع أدبى مثل الترضية، وعند حدوث جريمة دولية في ظل القانون الدولى المعاصر فإن الفرد وحده هو محل المسئولية الجنائية الدولية ، أما الدولة فتتحمل المسئولية المدنية من خلال جبر الضرر بالتعويض والترضية، حيث يلزم تعويض الضحايا أو ورثتهم فالجرائم ضد الإنسانية تُعد من الجرائم الكبرى الموجهه ضد الكافة ولا يخضع التجريم والعقاب فيها لأى استثناء أو قيود.

وثمة عراقيل كثيرة أمام تنفيذ المسئولية الدولية في مواجهة تركيا عن جرائمها بحق الأرمن ؛ اذ أين هي الآن الدولة العثمانية التي اقترفت الجرائم ضد الإنسانية بحق الأرمن داخل حدودها الجغرافية والسياسية ، وكذلك أين هم الجناة ومن أسهموا في ارتكاب تلك الجرائم ؟ ورغم أن الدولة التركية هي الوريث الشرعي للدولة العثمانية وقد قامت بالتصديق على اتفاقية (منع إبادة الجنس البشرى) في ٣١ يولية ١٩٥٠م، إلا أن تلك الجرائم قد ارتكبت قبل ذلك التاريخ وحتى قبل إقرار الأمم المتحدة لاتفاقية منع الإبادة وقبل توقيع تركيا عليها، عند هذا الحد ، سؤالاً جد مهم يطرح نفسه، هل المسئولية الجنائية قابلة لتحويلها إلى الدولة الجديدة (تركيا)؟ الدولة التركية ولدت من رحم الدولة العثمانية فقامت الجمهورية التركية على ثوابت الدولة العثمانية ، ويدعم هذا الرأي أن الحكومة التركية الجديدة استناداً إلى بنود معاهدة لوزان – قد حملت على عاتقها سداد ديون الحكومة العثمانية السابقة وذلك عام ١٩٢٥م.

وهنا يحق لنا أن نسأل هل تلاشي الإمبراطوريات الاستعمارية يعفي الدولة الأم من مسئوليات اقتراف الجرائم الدولية؟ وهل يُعني موت جميع المسئولين عن اقتراف الجريمة بحق الأرمن استحالة توقيع العقاب ؛ لكن ما سبق ذكره لا ينفي وجود انتهاكات للقانون الدولي يستحق الأرمن عنها تعويضًا ماديًا ومعنويًا، وإذا تناسى الأرمن الأضرار المادية للجريمة فالضرر المعنوي لا يُنسى خاصة مع عدم اعتراف تركيا بذلك، فما يُطالب به الأرمن من تعويض هو الاعتراف بالجرائم المرتكبة ضدهم دون أي تحريف للتاريخ و الاعتذار الرسمي عن ارتكاب تلك الجرائم.

ومما سبق يُمكن إثارة المسئولية الدولية للدولة التركية عن ارتكاب الجرائم ضد الإنسانية بحق الأرمن حيث أن الجرائم الدولية لا تسقط بالتقادم وعدم القدرة على إعمال المسئولية الجنائية الدولية للفرد لا يعنى عدم إعمال المسئولية الدولية للدولة عن طريق الجزاءات المالية في صورة تعويضات .

وبالنسبة للجرائم المرتكبة بحق الأرمن من قبل الدولة العثمانية والتى مات الجناة دون المثول أمام القضاء العادل ودون جبر الضرر وتحقيق العدالة وتعويض الأرمن ، إلا أن الدولة التركية ستبقى مسئولة عن تلك الجرائم ارتكازاً على أن تركيا هي الدولة الوريثة الوحيدة للسلطنة العثمانية، فتقع عليها مسئولية جبر الضرر والعمل على عودة الحقوق لأصحابها.

ووفقاً لمبادئ القانون الدولى لا يمكن لدولة أن تُنكر الآثار المترتبة على الجرائم ضد الإنسانية، وعلى المجتمع الدولى أن يتخذ ما يراه مناسباً من الإجراءات لضمان تقديم تعويض كافٍ للضحايا أو ورثتهم عن الجرائم ضد الإنسانية.

وفى ٢٩ نوفمبر ١٩٨٥م، أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة القرار ٤٠ /٣٤ والذى يتضمن إعلانًا بشأن المبادئ الأساسية لتوفير العدالة لضحايا الجريمة وإساءة استعمال السلطة. وقد أكدت الجمعية العامة في هذا القرار على الحاجة لاتخاذ تدابير وطنية ودولية لضمان الاعتراف العالمي والفعال لحقوق الضحايا ودعت الدول إلى اتخاذ التدابير الضرورية لتنفيذ ما ورد في الإعلان ، وقد أخذ الإعلان بمسئولية الدولة عن جبر الضرر للضحايا في الحالتين التاليتين :

أ- عندما يقوم الموظفون العموميون وغيرهم من الوكلاء الذين يتصرفون بصفة رسمية أو شبه رسمية بمخالفة القوانين الجنائية الوطنية ، ينبغي أن يحصل الضحايا على تعويض من الدولة التي كان موظفوها أو وكلاؤها مسئولين عن الضرر الواقع.

ب- حيثما لا يكون من الممكن الحصول على تعويض كامل من المجرم أو من مصادر أخرى ، ينبغي للدول أن تسعى إلى تقديم تعويض مالي .

ويعتبر الإعلان الخطوة الأساسية للأمم المتحدة في الاهتمام بضحايا الجريمة في مجال منع الجريمة والعدالة الجنائية ولا يمكن الاستناد عليه وحده لتقرير التزامات قانونية .

ويرجع الهدف من الإعلان هو مساعدة الحكومات والمجتمع الدولى في جهودهم نحو ضمان العدالة والمساعدة لضحايا الجريمة ولهذا الغرض دعا الإعلان الدول إلى التفاوض من أجل إبرام معاهدات دولية متعددة الأطراف تتعلق بالضحايا.

وفى عام ١٩٩٧م، أصدر المقرر الخاص للأمم المتحدة للجنة الفرعية لنقل السكان قسرياً التابعة للجنة حقوق الإنسان في الأمم المتحدة تقريراً ملحقاً به إعلاناً من ١٣ مادة قرر في المادة (٨) حق كل فرد رُحل أو نقل قسرياً في العودة طواعية إلى بلده الأصلي في أمان وكرامة ...) وممارسة هذا الحق لا يحول دون حق الضحية في سبل الانصاف المناسبة بما في ذلك استعادة الممتلكات التي حرموا منها وترميمها أو التعويض في أي ممتلكات لا يمكن استردادها أو أيه تعويضات أخرى ينص عليها القانون الدولى.

وتحظر المادة العاشرة على المجتمع الدولى ككل الاعتراف بالوضع القانوني الناتج عن تلك الأفعال أو أثارها الضارة، وتقديم أي معونة أو مساعدة للدولة التي ارتكبت تلك الأفعال أو الحفاظ على ذلك الوضع والآثار المترتبة عليه. وفى حالة الجرائم المرتكبة بحق الأرمن يُمكن الرجوع إلى اتفاقية الأمم المتحدة لمنع إبادة الجنس والعقاب عليها عام ١٩٤٨ وذلك بأثر رجعى على الأرمن الأمر الذى وقع فى الفترة من ١٩١٥ وحتى ١٩٢٣ وما فيها لأن نصوص الاتفاقية ليست منشئة للجريمة ولكنها كاشفة عن قانون دولي سابق وأكدت حق الضحايا أو ورثتهم في التعويض .

وهناك سوابق دولية عديدة لتطبيق الأثر الرجعى بما في ذلك اتفاقية لندن ٨ أغسطس ١٩٤٥ التي أقامت محكمة نورمبرج أو اتفاقية عدم تعليق أو تقيد العقاب على الجرائم ضد الإنسانية والصادر ١٩٦٨. وذهبت اتفاقية فينا لقانون المعاهدات في المادة (٣١) منها أن القاعدة الأساسية في التفسير هو اللجوء للمعنى العادي للألفاظ والمصطلحات في ضوء الغرض وموضوع المعاهدة وفقاً لسياقها .

ونرى أن الأثر الرجعى للمعاهدات التي تم ذكرها يحقق

الهدف المانع والرادع للعقاب على الجرائم ضد الإنسانية وينطبق على الأفعال التي وقعت قبل دخول المعاهدات حيذ التنفيذ . ومن ثم فإن قيام مسئولية الدولة التركية عن الجرائم ضد الإنسانية بحق الأرمن متحقق من الناحية القانونية ، فإذا أرادت تلك الدولة أن تثبت أنها دولة في طريقها إلى مصاف الدول المتقدمة وتحترم القانون الدولى وأهدافه ، فيجب عليها أن تعترف بمسئوليتها عن ارتكاب تلك الجرائم، لاسيما أن تلك الجرائم لا تسقط بالتقادم.

وفى هذا الشأن يمكن اللجوء إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة لطلب رأى استشاري من محكمة العدل الدولية وفقاً للمادة ٩٦ من الميثاق بشأن الأثر الرجعى لأى اتفاقية مما ذكرت والخاصة بالجرائم ضد الإنسانية أو اتفاقية الإبادة الجماعية . وكذلك يُمكن للحكومة الأرمنية أو أي طرف أخر في الاتفاقية أن تحيل المسألة إلى محكمة العدل الدولية بناءاً على المادة التاسعة من اتفاقية منع إبادة الجنس البشرى والعقاب عليها.

ونرى أيضا أن المسئولية الدولية عن واقعة الجرائم ضد الإنسانية للأرمن من ترحيل قسري ومذابح تجد أساسها القانوني في انتهاك حقوق الإنسان الأساسية وفى مقدمتها الحق في الحياة والحق في الكرامة والحق في المساواة وهو ما ترجمته المواثيق الدولية والنصوص الدستورية للدول .

وهو ما يمكن الاستناد إليه كقاعدة عرفية دولية ملزمة للدول كافة من قبل وقوع الجرائم ضد الأرمن ويكفى كأساس قانونى دولي في تقرير المسئولية الدولية عند انتهاكها ، وكذلك أيضاً نصوص وأحكام المعاهدات الدولية التي أبرمتها الدولة العثمانية مع باقي الدول لصالح الأقليات من رعاياها وعلى رأسها معاهدة برلين ١٨٧٨م التي أضفت المركز القانوني الدولى للأرمن وأضفت عليها صفة الجماعة المحمية بموجب القانون الدولى وهو مالا يعفى الدولة العثمانية وقتها من التنصل من التزاماتها بحماية الأرمن تحت ذريعة الحرب أو إخلال الأطراف بالتزاماتهم. فهذه الانتهاكات إذا ما تم إثبات وقائعها تعد كافية لإسناد المسئولية الدولية لتركيا بصفتها الخلف للدولة العثمانية.

فالجرائم ضد الإنسانية المرتكبة أثناء مذابح الأرمن لا تختلف كثيراً عن مذبحة اليهود في ألمانيا ولكن نظرت الأخيرة من قبل قضاء دولي وهى محكمة نورمبرچ .

وهو ما أدى إلى التمسك في وصف تلك الجرائم بوصف الإبادة الجماعية للأرمن ، وذلك لما لهذا الوصف من أثر تاريخي وقانوني مهم ، وعلى الرغم من ذلك فإن واقعة محرقة اليهود قليلاً ما تم التعامل معها على أنها جريمة إبادة جماعية، فقد تداولتها المحاكم سواء محكمة نورمبرج أو المحاكم الوطنية على أنها جرائم حرب أو جرائم ضد إنسانية ولم يتم التعامل مع هذه الواقعة على أنها جرائم إبادة إلا في قضايا محددة.

وإذا كان الإعلان الصادر عن الحلفاء فى عام ١٩١٥م بمناسبة واقعة ترحيل ومذبحة الأرمن أول من استخدام مصطلح الجرائم ضد الإنسانية لتوصيف واقعة مذبحة الأرمن وقامت لجنة المسئوليات عام ١٩١٩م بإيجاد السند القانوني للمسائلة الجزائية طبقاً لمصطلح " الجرائم ضد الإنسانية " وذلك من خلال مبدأ مارتينيز المنصوص عليه في اتفاقية لاهاي سنه ١٩٠٧ وهو ما استدلت بذلك التوصيف التطبيقات القضائية في تركيا عند نظر واقعة الأرمن ١٩١٩-١٩٢٠ . فالسند القانوني لإعمال المسئولية الدولية تجاه تركيا هو الأساس القانوني السابق للواقعة وهو مبدأ مارتينيز واتفاقية لاهاي ١٩٠٧ .

حيث عزز مبدأ مارتينيز العدالة الجنائية الدولية ورسخ مبادئها وسد الثغرات القانونية المعينة بالقانون الدولى الجنائي . فالجرائم ضد الإنسانية المرتكبة بحق الأرمن حدثت في فترة دخول الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى، وهو ما يُعطى مبدأ مارتينيز سنداً قانونياً لمسائلة الدولة التركية عند تلك الوقائع والجرائم بحق الأرمن حيث كانت الجرائم ضد الإنسانية وجرائم الحرب تشترك في أساس تجريمها القانوني وترتكب في وقت النزاع المسلح.

ومما سبق نرى أن مبدأ مارتينيز هو من يوفر الأساس القانوني للتجريم وهو استناد يوفر أساس قانوني سابق لواقعة المذبحة واعتماد وصف الجرائم ضد الإنسانية صراحة كوصف قانونى لما حدث للأرمن، ويمكن أيضاً اعتماد وصف الإبادة الأرمنية كأحد الجرائم ضد الإنسانية استناداً لنفس المبدأ وليس كجريمة إبادة جماعية مستقلة تجد أساسها القانوني في اتفاقية الإبادة الجماعية اللاحقة لواقعة المذبحة .

ويعد مبدأ مارتينيز من المصادر المرنة التي تنسجم مع القانون الدولى الجنائي نظراً لتداخل مصادره وتعلقه بالقواعد العرفية، فهو يُعد عامل من عوامل سد الثغرات الموجودة في القانون الدولى الجنائي، والتي تنال من منظومة العدالة الدولية، إلا أنه يقل التعامل به ويضعف كلما تكاملت منظومة العدالة الجنائية الدولية وتطور القانون الدولى الجنائي.

فكلما واجهت المحاكم الدولية معوقات في التغيير تلجأ إلى مبدأ مارتينيز وذلك لصياغة مبادئ تتماشى مع طبيعة القانون الدولى الجنائي وجسامة الجريمة الدولية عموماً والجرائم ضد الإنسانية خاصة نظراً لطبيعتها ووقائعها .



الديمقراطية والمسيحية متوافقتان؟!

بقلم: كيفورك خاتون وانيس
كاتب ومترجم

ثمة اعتقاد شائع في أوساط الكثير من الدارسين والباحثين والمهتمين بمسألة المجتمعات والديمقراطية، بأن مسيحية الغرب هي منبع أو ملهمة ديمقراطيته أو بالأحرى الديمقراطية والمسيحية متوافقتان مستندين في استنتاجهم هذا على ثلاثة معطيات: كل الديمقراطيات في العالم هي دول مسيحية، وافتقار العالم الإسلامي لأي دولة ديمقراطية (الديمقراطية التركية حالة خاصة سيتم تناول بعض جوانبها في النهاية)، وثالثاً استمرار وجود أحزاب سياسية مسيحية في الدول الديمقراطية.

قد يبدو هذا الاستنتاج للوهلة الأولى محاكياً للواقع وبنفس الوقت مقبولاً بالنسبة للكثيرين وخاصة الذين يتّخذون من الإحصاءات منهجاً مطلقاً في الحكم على الكثير من الظواهر.

لكن هل يمكن الوثوق دائماً بعملية الرصد الظاهري الآني وخاصة في تطور المجتمعات والثقافات؟ أليست مراجعة بسيطة لإرهاصات العلاقة بين الديمقراطية والمسيحية ضرورية ومفيدة في الوصول إلى نتيجة أشمل وأكثر عمقاً؟ فلو تناولنا تاريخ اتخاذ أوروبا للمسيحية ديناً رسمياً لدولها (أي إدخال الدين في السياسة)، والذي هو القرن الرابع للميلاد، لرأينا أنها متوافقة تقريباً مع تاريخ دخول أوروبا في عصور الظلمات أو ما يعُرف بالقرون الوسطى، ولما استطعنا العثور طوال تلك الفترة، التي امتدت لأكثر من ألف عام، على أي دولة في أوروبا عرفت نوع من الديمقراطية، بل على العكس كانت أحلك فترة في تاريخ أوروبا على مستوى الحريات وحقوق الإنسان؛ فالأفواه كانت مكممة والرؤوس كانت على المقاصل والأجساد تحرق في الساحات باسم الدين.

كما أن إقحام المسيحية في السياسية كان السبب في دخول أوروبا في الكثير من الحروب الطائفية الوحشية؛ فمن حرب الثلاثين عاماً (١٦١٨-١٦٤٨) بين الكاثوليك والبروتستانت والتي أدت إلى تقسيم الدول على أساس مذهبي وراح ضحيتها الملايين، إلى سلسلة الحروب الثمانية الدينية التي تمثلت في توحش الدولة الكاثوليكية الفرنسية ضد قسم من سكانها غير الكاثوليك (البروتستانت) بالتزامن مع وحشية الدولة البروتستانتية (الأنجليكانية) الإنجليزية ضد سكانها الكاثوليك!

لو تركنا التاريخ الأوربي جانباً، واتجهنا إلى الواقع المعاش على الضفة الأخرى من الأطلسي فأننا لن نستطيع على العثور على أي دولة ديمقراطية بين دول أمريكا الجنوبية والوسطى وهي جميعها دول مسيحية منذ مئات السنين؛ فهذه الدول كانت ولازال قسم كبير منها يعيش أنواع من الديكتاتورية والمافيا السياسيّة!

أما محادلة مقولة بأن استمرار الأحزاب المسيحية في ظل الديمقراطيات هو دليل على نوع من التعايش أو التوافق بين المسيحية والديمقراطية، فهي تحتاج إلى معاينة ميدانية لمدى تطابق نهج هذه الأحزاب وبرامجها مع كلمة المسيحية الواردة في تسمياتها (الحزب الديمقراطي المسيحي في الكثير من الدول الأوروبية) .

والمتتبع للبرامج الانتخابية لهذه الأحزاب، ومن ثم نجاحها في دخول البرلمان والمشاركة في الحكومة (الاتحاد المسيحي

الديمقراطي في ألمانيا؛ حزب المستشارة أنجيلا ميركل، على سبيل المثال لا الحصر) يكتشف بسهولة خلوها من أي اتجاه ديني أو حتى مجرد ذكر الدين سواء دخل الحزب نفسه أو تحت قبة البرلمان أو الحكومة؛ باختصار لا علاقة لها برجال الدين أو الكنسية؛ إنها أحزاب تقليدية تحافظ على التسمية لغاية واحدة فقط ألا وهي كسب أصوات الجيل القديم " المؤمن " إلى حد ما! باختصار هي ليست أحزاب عقائدية .

فالقول أن مسيحية الغرب كانت وراء ديمقراطيته أو أن أنهما متوافقتان أو متعايشتان هو أمر لا يتوافق مع هذه المعطيات لا بل على العكس فإن أوروبا لم تعرف الديمقراطية إلا بعد ابعاد المسيحية عن الحياة السياسية، كما أنها عرفته في بلاد الاغريق قبل دخول المسيحية!

فأوروبا لم تستطع تأسيس ناديها الديمقراطي إلا بعد أن أعادت رجال الدين إلى معابدهم ليهتموا بشؤون السماء ويتركوا ترتيب شؤون الدنيا الاقتصادية والمجتمعية والسياسية لخبرائها وفلاسفتها وعلمائها. لقد أعادوا تعريف الدين إلى أصله والذي كان وسيظل علاقة الفرد الروحية مع ربه ، تلك العلاقة التي تتكفل الدولة بحمايتها.

أما لماذا تم في المقدمة اعتبار الديمقراطية التركية حالة خاصة يستوجب التوقف عندها رغم مشهد الانتخابات الأخيرة الذي أدهش العدو قبل الصديق، فيمكن إيجازه ببعض النقاط الأساسية:

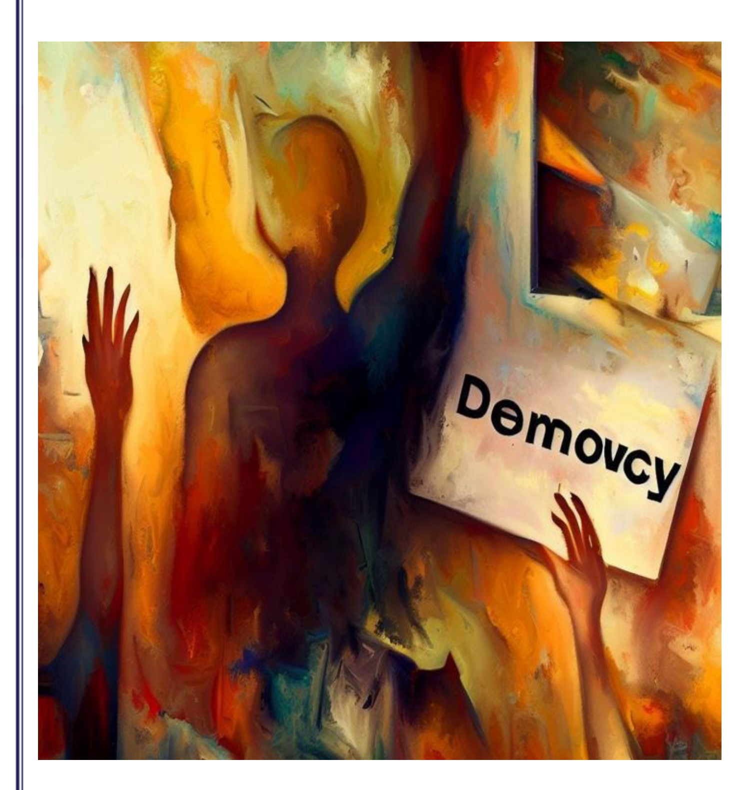
-ممارسة الحق الانتخابي هو شرط لازم للديمقراطية لكنه غير كافٍ؛ فالانتخابات هي عملية ديمقراطية وليست الديمقراطية بأكملها، بعبارة أخرى الدولة الديمقراطية هي دولة القانون والدستور وليست دولة الرئيس حتى وإن أتى بالانتخابات.

-لا يمكن تسمية أي دولة بأنها ديمقراطية إذا منح الدستور رئيسها صلاحيات مطلقة وخاصة في تعيين كل المسؤولين المدنيين رفيعي المستوى، وإعادة هيكلة الوزارات والإدارات العامة حسب تقديراته، وتعيين نصف قضاة الدولة في المراكز العليا، والنصف الأخر من حق البرلمان (فماذا لو حدث وان كان الرئيس والكتلة البرلمانية الأكبر من نفس الحزب؟)

-لا يمكن إطلاق صفة الديمقراطية على أي دولة إذا كان قانونها يتضمن مادة "إهانة الأمة" أو "وهن نفسية الأمة"؛ المادة ٣٠١ من قانون العقوبات التركي الذي تم استخدامها سياسياً ولازال لتكميم الأفواه!

-بعيداً عن التعابير المستخدمة في تعريف الديمقراطية، الدولة الديمقراطية ببساطة هي الدولة التي يعيش فيها الانسان دون خوف وخاصة من "الحيطان التي لها آذان! "

-أما أكبر مؤشرين على افتقار الدولة للديمقراطية فهما: معدلات الهجرة ومسألة الاعتقال السياسي؛ أي الذّل!





العلمين مدينة التاريخ والمستقبل

بقلم: جاكلين جرجس



مدينة الأحلام أو مدينة العلمين الجديدة، قد يعتقد البعض أنه بعد أن شرعت الدولة فى إنشاء مدينة العلمين الجديدة أصبحت المدينة القديمة خارج دائرة الاهتمام، ولكن الحقيقة والواقع يؤكدان أن العلمين القديمة هى الأخرى فى دائرة الاهتمام، ويجرى تأهيلها بالتوازي مع العلمين الجديدة لتصبح المدينتان امتداداً طبيعياً لبعضهما فى منطقة ستتحول قريبًا إلى منطقة جذب سياحي عالمي وستصبح ذات طابع سياحي وصناعي متميز و جذاب؛ و يعود تاريخ المدينة إلى العصر الروماني حيث كان يقع على أرضِها قديماً مدينة ليوكاسبيس، وهي مدينة ساحلية رومانية قديمة، ويتميز وسط المدينة بوجود كاتدرائية رومانية وقاعة كبيرة تم تحويلها إلى كنيسة. مثلت القرية قديماً مركزاً تجارياً بين مصر وليبيا والواردات الكريتية. وقد تم تدمير المستعمرة القديمة عام ٣٦٥ بموجة تسونامي ناتجة عن زلزال وقع خارج ساحل كريت.

ولم تتم إعادة بناء البلدة، بسبب حالة الاضطراب التي كانت عليها الإمبراطورية الرومانية آنذاك. وتم فقد أثر ليوكاسبيس حتى عام ١٩٨٦م، حين قامت مجموعة من المهندسين الذين كانوا يعملون على بناء الطرق في مارينا العلمين، بالكشف عن منازل ومقابر قديمة. ولقد تم تصنيف ٢٠٠ فدان من الأرض المحيطة كمنطقة أثرية، وبدأت عمليات التنقيب عن الآثار في فترة التسعينيات من القرن الماضي، كما كانت العلمين شاهدة في التاريخ القديم على الحرب العالمية الثانية، التى خلفت وراءها



مدافن ونصبًا تذكاريًا و أصبحت مزارًا لأسر ضحايا الحرب العالمية الثانية وبعض السائحين الباحثين عن الثقافة والعلم، مما جعل العلمين من أهم المزارات السياحية بمصر.

فى إطار حرص الدولة على هذه المنطقة الحيوية والمهمة عملت منذ ٣ سنوات على إنارة جميع المناطق والتوابع والتجمعات السكنية المحرومة من الكهرباء حيث لا يوجد تجمع يضم ١٠ منازل إلا وتمت إنارته، ويجرى تنفيذ مشروع توصيل شبكات مياه الشرب للمناطق جنوب خط سكك حديد العلمين لتزويدها بمياه الشرب من محطة مياه العلمين بتمويل من وزارة الإسكان بعد أن تم الانتهاء من الشبكة الداخلية لمياه الشرب داخل المدينة التى يتم ضخ المياه إليها بصفة مستمرة.

وتُشير التقارير إلى أن مصر عانت على مدار عقود ماضية من مشكلة انتشار الألغام الأرضية بمساحات كبيرة خاصة في منطقة الساحل الشمالي وسيناء،

في ظل وجود ما يقرب من خُمس الألغام الموجودة في العالم على أراضيها ، لذلك عملت مصر بكامل طاقتها لإزالة الألغام، والتي تنوعت بين إنشاء مراكز متخصصة لمكافحة الألغام؛ كما أطلقت وزارة التعاون الدولي عام ٢٠١٧م المركز الوطني لإزالة الألغام والتنمية المستدامة لتنسيق الجهود مع الجهات الإقليمية والدولية المختلفة المعنية بإزالة الألغام للأغراض الإنسانية وتحقيق التنمية المستدامة.

وسعياً نحو التخلص من الألغام أبرمت مصر العديد من الاتفاقيات ومذكرات التفاهم مع دول ومؤسسات عالمية للمساعدة في عمليات التطهير على مدار السنوات الماضية، حيث اتفقت وزارة التخطيط والتنمية الاقتصادية ومكتب برنامج الأمم المتحدة الإنمائي في فبراير عام ٢٠١٦م على تنفيذ مشروع "دعم مخطط تنمية الساحل الشمالي الغربي والعمل لإزالة الألغام" بتكلفة ١٠.٨٦ مليار دولار بهدف تعزيز فرص التنمية المستدامة للمجتمعات المتضررة من الألغام والذخائر غير المتفجرة في الساحل الشمالي الغربي لمصر، كما وافق مجلس النواب المصري عام ٢٠١٧م على خطاب التفاهم الموقع بين وزارة التعاون الدولي والصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي للمساهمة في تمويل المرحلة الثانية من مشروع دعم خريطة التنمية المستدامة وإزالة الألغام بالساحل الشمالي بقيمة ٣٠٠ ألف دينار كويتي، فضلاً عن توقيع مذكرة تفاهم بين مصر وسويسرا عام ٢٠١٩م من أجل تنسيق التعاون بين الأمانة التنفيذية لإزالة الألغام وتنمية الساحل الشمالي لمصر التابعة لوزارة التعاون الدولي ومركز جنيف الدولي لإزالة الألغام للأغراض الإنسانية.

كما أن الجهود المصرية لم تقف عند حد التخلص من الألغام بل سعت مصر على استغلال الأراضي بعد تطهيرها من الألغام وتحويلها إلى مجتمعات عمرانية وتدشين مشروعات تنموية واستثمارية بها، مما ساهم بشكل كبير في إنشاء أول محطة للطاقة النووية في مصر، كما جرى تطهير مشروع امتداد ترعة الحمام بالساحل الشمالي لاستصلاح واستزراع آلاف الأفدنة، وهو ما من شأنه دعم التنمية الزراعية، كما تم تدشين مشروع تنمية الساحل الشمالي الغربي من العلمين وحتى السلوم لمسافة نحو ٥٠٠ كم حيث يعد المشروع واحداً ضمن سلسلة مشروعات قومية كبرى حددها المخطط الاستراتيجي القومي للتنمية العمرانية ٢٠٥٢ بهدف تعزيز التنمية الشاملة على مستوى الجمهورية.

لذلك نجد أن مدينة العلمين الجديدة هى أحد أهم مدن الجيل الرابع أى المدن متعددة الأنشطة، والتى تعمل على دفع عجلة الاستثمارات نحوها وتعزيز الأنشطة الاقتصادية لها، وتوفير فرص أكثر لمشاركة القطاع الخاص، مع إتاحة التنقل من خلال الربط مع المدن الأخرى، إلى جانب أن تصميم تلك المدن يتكيف مع التغيرات المناخية ويجري هذا الأمر من خلال زيادة المناطق الخضراء والمساحات العامة، واستغلال موارد الطاقة المتجددة ، كان قد صدر قرار جمهوري عام ٢٠١٨م بإنشاء مدينة العلمين الجديدة و التى تبدأ حدودها من طريق وادي النطرون إلى الضبعة، وتبلغ مساحتها الاجمالية ٤٨ ألف فدان، ومن المخطط أن تستوعب أكثر من ٣ ملايين نسمة، ويوجد بها ١٠ آلاف وحدة إسكان اجتماعي، كما تتسم بموقعها المميز والذي سيجعلها بوابة مصر على إفريقيا، حيث ستغير خريطة الساحل الشمالي بأكمله والمفهوم الذى أنشئ على أساسه، فهي ستكون مدينة سكنية تستقطب المواطنين طوال العام، وليس موسم الصيف فقط كما هو معتاد، ويتوافر بالمدينة ١٥ ألف فدان معدة للتنمية الفورية، وتتسم بأنها مدينة متكاملة تشمل جميع الأنشطة السكنية، كما تعد وجهة سياحية وصناعية، كما يوجد بها جامعة أهلية، وفنادق عالمية، ومقرين للرئاسة

ومجلس الوزراء ، العلمين الآن ترتدى حلتها و ثوبها الجديد لتعلن عن عودتها عبر نفق عصري جذاب فنجدها اليوم مدينة صديقة للبيئة و شاهدة فى التاريخ الحديث على التطور العمراني العصري والذكي و الاستثمار الواعي للسياحة ، ولهذا ركزت الحكومة المصرية جهودها في تحقيق مشروعات تنموية جديدة ، فارتبط نجاح التنمية السياحية المستدامة ٢٠٣٠ بالتخطيط السياحي، وفهم مفهوم ومكونات التنمية السياحية المستدامة، خاصة أن التنمية السياحية من القضايا المعاصرة فى كثير من الدول لأنها تهدف إلى زيادة الدخل القومى و الفردي وبالتالي تعتبر أحد المصادر الرئيسية للتنمية الاقتصادية، خاصة الآن و التى تعتبر أهم انجازات الجمهورية الجديدة أن اتجهت أنظار الدولة المصرية إلى إنشاء المدن الجديدة على رأسها مدينة العلمين الجديدة وموقعها المتميز سيجعلها بوابة مصر على إفريقيا ، هي أول مدينة مليونية فى الساحل الشمالي مصممة لاستيعاب ما يقارب ٣ مليون نسمة ،مناسبة للعيش طوال العام ليست فقط مدينة للمصيف فهى تمتلك مساحات زراعية للنخل والزيتون والرمان، وتعتبر إحدى مدن الجيل الرابع، خاصة مع تشابهها مع العاصمة الإدارية الجديدة من حيث ضخامة المشروعات العالمية و الفندقية التي ستقام عليها و التى ستضاهي الأبراج الفندقية بالمدينة أبراج دبى، بالطبع هو استثمار قوى واعٍ للمستقبل فقيمة الاستثمارات بالمدينة تبلغ عشرات المليارات على طول شاطئ المدينة أى ١٤ كم مما يؤهلها على أن تحتوى كورنيش عالمي متميز ، كما ستستفيد الدولة بكل بقعة شاغرة فى المدينة سواء فى إقامة الفنادق الفاخرة و مراكز المؤتمرات بمواصفات عالمية، أيضًا لم تغفل الدولة عن أهمية التراث الثقافي و الإرث التاريخى الهام لهذه المدينة فقررت أن تضم بين جنباتها مكتبة بحجم مكتبة الإسكندرية ، متحف مفتوح ، مركز ثقافي ، دار أوبرا ، مقابر الحرب العالمية ، مسجد و كنيسة ضخمة ، و لأجل استقطاب شريحة السائحين الشباب عملت الدولة على إنشاء متنزه دولي ، ملاهي، نوادي رياضية ومراكز تجارية ، حدائق و غيرها.

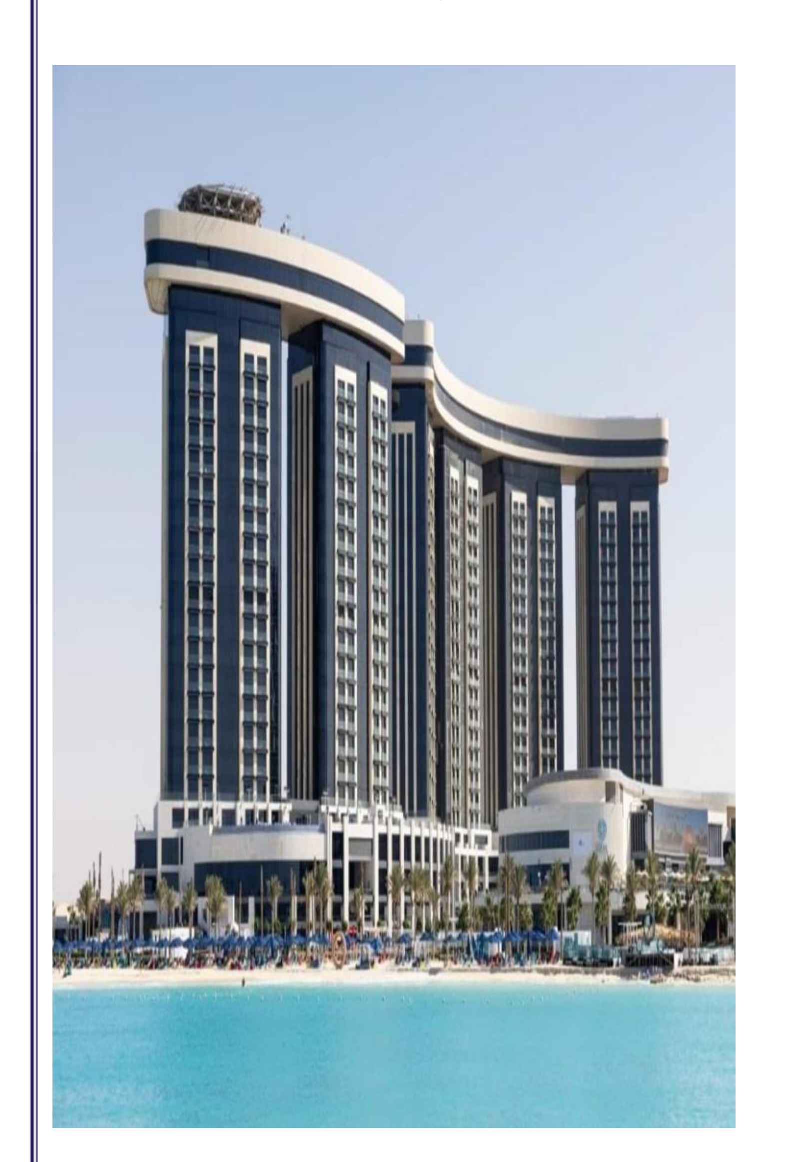
علينا الآن دمج على هذه المعطيات و الإمكانات السياحية و الثقافية للخروج بمنتج سياحي ترفيهي ثقافي متكامل خاصة بعد مرور أربعة سنوات على اكتشاف مقبرة العلمين التى تقع جنوب الموقع الأثري " قصور العطش"، حيث أسفرت أعمال البحث و الكشف عن مقبرة منحوتة فى الصخر، بها غرفة دفن رئيسية تحوى ١٤ فتحة دفن، وتم العثور بداخل تلك الفتحات على بقايا هياكل عظمية لرجال ونساء وأطفال حوالى ٤٠ هيكلاً عظمياً وعلى بقايا توابيت خشبية متهالكة، وتبين أن المقبرة تعود لنهاية القرن الأول الميلادي وحتى نهاية القرن الثانى الميلادي، و بعد إقرار مجلس الوزراء برئاسة الدكتور مصطفى مدبولي فى يونيو ٢٠٢١، اعتبار مقبرة العلمين أرضاً أثرية، وهو القرار الذى انتظره الأثريين منذ وقت للاحتفال بالكشف الأثري الجديد ، فى حين وافقت اللجنة على الدائمة للآثار على ضم الموقع الأثري كمنافع عامة آثار بحلول منتصف عام ٢٠٢٠م ، ينبغي علينا مواكبة العصر التكنولوجي الحديث و الاستفادة منه بشتى الطرق الممكنة لما له من أهمية قصوى لاستثمار المتاحف فى قطاع السياحة و استخدام المقابر و المتاحف مثل متحف كهف رومل بمرسى مطروح الذى تم إعادة افتتاحه بعد ترميمه فى أغسطس ٢٠١٧م، ويضم مجموعة من الأدوات الحربية وخريطة للمواقع العسكرية خلال الحرب العالمية الثانية، و متحف العلمين ، يأتي ذلك من خلال فن تسويق الثقافات وتحويل الجانب الاقتصادي ضمن مشاريع استثمارية للسياحة عبر اليات جذب اكثر عدد من الزائرين.

فاصبح اللجوء إلى تقنيه التسويق المتحفي أمر ضروري

وملح جدًا، و يُمكننا تحويل المتحف من قطع جبسية صماء إلى قطع حية عبر التقنيات الحديثة و تحويل المتحف الواقعي إلى متحف افتراضي فى فضاء تخيلي على شبكة الانترنت يضم مقتنيات تتميز بتنوع أزمانها وأمكنتها، وتستعمل التكنولوجيا الرقمية في عرض الاعمال والوثائق والمواد والاشياء باختلاف مرجعياتها الثقافية والزمانية والمكانية، إذ تستعمل بعض المتاحف الافتراضية تقنيات الواقع الافتراضي ثالثي الابعاد ، كما يمكننا استخدام تقنية والهولوجرام و نظارات الـ V.R و تقديم عروضا تشويقية حية ملموسة تجذب الناظرين إليها ، مع أهمية دعم المتحف بأقسام خاصة للزائر الذى يعتمد على لغة الإشارة أو لغة برايل ،بجانب تجديد الإصدارات والكتب والمزيد من العناصر الترويجية مثل الإعلانات والعلاقات العامة والتسويق الإلكتروني المباشر لنماذج من المعروضات المستخدمة .

يبقى لنا بعض التحديات المهمة التى تحتاج إلى إعادة تفكير لإرضاء شريحة كبيرة من المصريين فالوحدات المقدمة في مدينة العلمين الجديدة باهظة الثمن نوعًا مما قد يجعل البعض شعار أنها مدينة للأغنياء فقط، حيث إن المتر الواحد يبلغ سعره ٥٠٠٠ جنيه مصري، أي أن أسعار الوحدات السكنية المتوفرة هناك تتراوح ما بين ٢ مليون جنيه مصري إلى ٣ مليون جنيه مصري، وهذا لا يناسب فئات كثيرة من الشعب المصري ، كما تبتعد مدينة العلمين عن المحافظات الرئيسية بمسافات غير قليلة، ولذلك فإن شراء واحدة سكنية هناك يلزمه شراء سيارة كضرورة معيشية و ليست ترفيهية أو كماليات حيث لا تتوافر مواصلات نقل عام هناك نظرًا لأنها مدينة جديدة، ولم يتم تحديد خط سير الطريق إليها حتى الآن ، نثق أن الحكومة و القيادة تضع المواطن أولى أولوياتها لذلك ستتجه لتوفير كل احتياجاته و تلبيتها ليتثنى للجميع العيش و كسب الرزق فى هذه المدن الجديدة.

و بالطبع وضعت الحكومة خطة تسويقية جذابة ورائعة فاهتمت بالجانب الترفيهي فى التسويق السياحي وعليه أثمن مبادرة إقامة حفلات طول أيام الصيف، بداية من شهر ٧ وحتى نهاية أغسطس، والتى تعتبر حفلات عالمية لجذب أكبر عدد من السائحين إلى مدينة العلمين خاصة أن التنمية السياحية في مصر ضرورة ملحة نظرًا لأهمية السياحة في انتعاش الدخل القومي وتحسين الاقتصاد المصري ، نبارك لأنفسنا أولاً و العالم على مدينة الاحلام وفى انتظار المزيد لتحقيقه لتسترد مصر مكانتها السياحية العظيمة وسط دول العالم.





حوار مع السيد هراتش كالساهاكيان

مؤسس موقع آزاد-هاي (البوابة الأرمنية في الشرق الأوسط)

أجرى الحوار: عطا درغام



السيد هراتش كالساهاكيان، خريج إدارة السياحة من جامعة باتراس في اليونان، وحصل علي ماجستير في إدارة الموارد البشرية من جامعة ليڤربول في بريطانيا، ومترجم عدة كتب من الأرمنية إلى العربية، مُقيم في مدينة الشارقة في الإمارات العربية المتحدة منذ ٢٥ عاماً. يعمل حالياً في مجال الاستشارات السياحية والتعليمية وغيرها. مواليد أثينا ١٩٦٦، نشأ في لبنان والكويت وسوريا. وقد تحاورنا معه للحديث عن الأرمن في الإمارات وعن أنشطة موقع آزاد هاي والدور الذي قام به في خدمة القضية الأرمنية.

وإليكم الحوار:

متي بدأ التوافد الأرمني علي الإمارات العربية المتحدة ؟

بعد اكتشاف النفط (البترول) في الإمارات في الخمسينيات من القرن الماضي، حضر بعض الأرمن من إيران وسوريا ولبنان والعراق إلى ما كان يسمى آنذاك بالإمارات المتصالحة والواقعة تحت الحكم البريطاني. عمل الأرمن الأوائل في شركات استخراج النفط، وكانوا في الأغلب مهندسين أو تقنيين، وبعضهم متزوجين ولكن أبقوا عائلاتهم في دولهم الأم نظرًا لصعوبة الحياة في الإمارات آنذاك، ولعدم توفر مدارس أو خدمات لائقة. ومع مضي الوقت تحسنت الأمور كثيراً في الإمارات وأصبحت البيئة الاجتماعية ومستوى المعيشة مناسبًا لسكن العائلات الأجنبية.

وفي أوائل الثمانينيات من القرن الماضي باشر الأرمن في خلق نواة لمجتمع أرمني منظم من خلال لجنة سُميت بـ "لجنة الجالية الأرمنية" والتي قامت بتأسيس مدرسة أسبوعية في مدينة الشارقة (حيث التجمع الأكبر لأفراد الجالية) ولاحقًا مدرسة أخرى في أبوظبي. كما قامت اللجنة باستضافة بعض رجال دين أرمن عدة مرات في السنة ،ولاسيما في عيد الفصح وعيد رأس السنة سواء من الكويت (حيث توجد كنيسة أرمنية منذ الخمسينيات من القرن الماضي)، أو من لبنان مباشرة (حيث مقر كاثوليكوسية بيت كيليكيا في ضاحية أنطلياس قرب بيروت). وأثمرت الزيارات التي قام بها رجال دين الكاثوليكوسية، وعلى رأسهم الكاثوليكوس كاريكين الثاني ومن بعده الكاثوليكوس الحالي آرام الأول إلى تقديم هبة للجالية الأرمنية من قبل شيوخ الإمارات، تمثلت بأرض في منطقة الكنائس في كل من الشارقة وأبوظبي. وهكذا، تم تدشين الكنيسة الأرمنية في الشارقة عام ١٩٩٨، وفي أبوظبي عام ٢٠١٤.

ماذا عن حجم الجالية الأرمنية فى الإمارات العربية المتحدة ؟

تُقدر أعداد الأرمن في الإمارات بحوالي ٥-٦ آلاف شخص، معظمهم من الدول العربية (وعلى الأخص سوريا ولبنان)، مع وجود أرمن من دول عربية أخرى مثل الأردن ومصر والعراق، بالإضافة إلى الأرمن القادمين من إيران وأوروبا. وهناك حوالي ألف أرمني من أرمينيا. وفي السنوات الأخيرة سعى معظم الأرمن المقيمين في الإمارات والمنحدرين من البلدان العربية للحصول على جنسية وطنهم الأصلي أرمينيا. عموماً العلاقات بين الأرمن في الإمارات وأرمينيا وثيقة جداً خاصة من ناحية التنقل والزيارات وشراء شقق سكنية وإقامة الأعمال.

فى رأيك كيف أصبحت منطقة الخليج العربى منطقة جاذبة للأرمن ؟

كان الحضور الأرمني في منطقة الخليج العربي ملحوظًا جداً في الكويت بدءاً من مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، بسبب ظهور النفط بشكل مبكر في الكويت مقارنة مع دول الخليج الصغيرة الأخرى، وكذلك بسبب حاجة المجتمع الكويتي (الكبير عددياً مقارنة مع قطر والبحرين والإمارات) للخدمات، وكانت منطقة شمال الخليج العربي مزدهرة جداً في تلك الفترة التي سبقت الثورة الإيرانية ولاسيما مدن مثل الكويت والبضرة وعبدان (في إيران). أما الإمارات فقد توافد الأرمن إليها بعد أن توافرت فيها ظروف جيدة للعيش بعد الاستقلال (١٩٧١)، خاصة بعدما أصبحت الدول العربية تعاني من عدم استقرار إثر الحروب (نكسة ١٩٦٧، الحرب الأهلية اللبنانية، حرب الخليج الأولي والثانية وغزو الكويت... إلخ).

هل ترك الأرمن أثراً إيجابياً فى دولة الإمارات العربية المتحدة ؟

معظم الأرمن الذين تركوا أثراً في الإمارات كانوا من أصحاب الأعمال، والمدراء التنفيذيين، والتقنيين، والمهنيين. من المشاهير نذكر "جويل ماردينيان" وهي سيدة أعمال وخبيرة تجميل لديها عدد كبير من عيادات التجميل، و"فاروج ناركيزيان"، مصرفي معروف، كان مديراً لبنك الشارقة لعدة عقود ولايزال يقدم خدماته بصفة استشارية. وبرز أيضاً بعض المهندسين ممن قاموا بأعمال إنشائية مثل الأخوين "سورين" و"هاروت كوچاكيان"، و"كريكور مسرهچيان"، الذي تولى أيضاً رئاسة الجالية في أبوظبي لفترة من الزمن. ونذكر أيضاً "چوليزار چونيان"، مهندسة وناشطة ضمن الوسط النسائي في أبوظبي والإمارات عموماً، و"بيرچ أبراهاميان" الذي كان من أوائل الذين عملوا في بناء كورنيش أبوظبي في الستينيات من القرن الماضي. وفي الشارقة نذكر عدد من أرمن كسب (منطقة في شمال اللاذقية) الذين أقاموا ورشًا فنية في الإمارة. وهناك عدد كبير من الشبان والشابات المستقرين في الإمارات، ولاسيما في دبي ممن أتوا من سوريا ولبنان في السنوات العشر الأخيرة بسبب ظروف الحرب وتردي الأوضاع الاقتصادية في بلدانهم، وهؤلاء يعملون في كافة المجالات منها التسويق والمبيعات والمشتريات والقطاعات الإبداعية المختلفة. ومنهم رواد أعمال.

ما اللغات التي يتعامل بها الأرمن ، وهل يحافظون علي اللغة الأرمنية..؟

نظراً لأن اللغة الإنجليزية هي السائدة في الإمارات بسبب التنوع الشديد في الجنسيات التي تقطن الإمارات ونظراً لطغيان الإنجليزية في المدارس التي تستقطب أبناء المقيمين، فقد أصبحت اللغة الإنجليزية على مر السنوات هي الدارجة بين أبناء الجيل الجديد من الأرمن، مع الرغبة في المحافظة على اللغة الأم. ولكن ظروف الحياة وحاجة الأبوين للعمل وعدم وجود أقارب في البيت أو في المحيط الاجتماعي ممن يمكن الاعتماد عليهم في المساعدة على تنشئة الأبناء وتعليمهم اللغة الأرمنية وعدم وجود مجتمع أرمني منظم بالمعنى التقليدي (نوادي، جمعيات، فرق كشافة أو فرق رياضية ...إلخ)، كل هذه أدت إلى إهمال اللغة والتقليد.

هل للأرمن مدارسهم الخاصة. أم يتعلمون في مدارس إماراتية..؟

هناك مدرستان أسبوعيتان في الشارقة (١٥٠ طالباً) وأبوظبي (٢٥ طالباً)، في موقع الكنيستين الأرمنيتين. يُعاني بعض الأهالي من بعد موقع المدرسة الأسبوعية من أماكن السكن الخاصة بهم.

الدراسة في كل مدرسة تستغرق ثلاث ساعات أسبوعياً، والهدف هو تعليم بعض أساسيات اللغة وخلق جو اجتماعي بين التلاميذ. والتعليم تقليدي يعتمد على كتب وأساليب قديمة ،وقائم على جهود عدد من المدرسين المتطوعين.

هل يشعر الأرمن بالغربة في الإمارات؟

الأرمن مندمجون في الإمارات ويشعرون بأنهم جزء من الإمارات، نظراً لأن الإمارات تتيح لهم تحقيق العيش الكريم والتقدم في السار المهني وتحقيق النجاحات الفردية. ونظراً لأن الأرمن جزء من مجتمع كبير متنوع ،فإنهم يشعرون بأنهم كان لديهم ولا يزال لديهم دور في تنمية مجتمع الإمارات، وتحقيق التطور في البلاد وهذا طبعاً بسبب الظروف المواتية المتوفرة في البلاد. الإمارات تنعم بقيادة مثالية حققت العيش الكريم لكل من المواطنين والمقيمين.

وبخصوص العادات والتقاليد والاحتفالات والأعياد الأرمنية .. ما العوامل التي حافظت علي التقاليد والثقافة لدي الأرمن في الإمارات؟

يحاول الأرمن الحفاظ على تقاليدهم، وذلك من خلال التردد على مركز الجالية الأرمنية في كل من أبوظبي والشارقة، حيث تُقام هناك بعض الفعاليات لا سيما في المناسبات الدينية والقومية، أو لدى زيارة بعض الشخصيات القادمة من أرمينيا أو من دول أخرى.

ولكن نظراً لطبيعة الحياة في الإمارات والتي تشبه الحياة العصرية في أوروبا وأمريكا، فإن معظم الأرمن منشغلون بحياتهم الشخصية والأسرية ويتواصلون مع أصدقائهم والحلقات الاجتماعية المصغرة التي ينتمون إليها، ولا يتوقون كثيراً للسير مسافات طويلة من أجل حضور قداس أو احتفال. من ناحية أخرى فإن وجود أرمينيا على بعد ثلاث ساعات سفر ورخص تذاكر السفر إليها وقدرة معظم الأرمن في الإمارات على تحقيق رحلات سفر واستجمام في أرمينيا، أدى إلى مساعدة الأرمن في الحفاظ على تقاليدهم وشعورهم بأنهم جزء من الوطن الأصلي.

لماذا يندمج الأرمن سريعا في المجتمعات التي يستقرون فيها..؟

يندمج الأرمن بسهولة في المجتمعات التي يستقرون فيها، نظراً لرغبتهم الشديدة في النجاح وتحقيق الاستقرار والتوازن في حياتهم، ذلك لأنهم أبناء أجيال عانت في السابق من ظلم التاريخ لذلك. فإنهم لا يترددون في اقتناص الفرص لتحقيق الرخاء والسلام والسكينة؛ أي أنهم عموماً لا يميلون إلى المجابهة، وإنما يرغبون في التواصل وإقامة أواصر الصداقة.

ما الأماكن التي تشهد تجمعات الارمن في دولة الإمارات العربية المتحدة..؟

هناك تجمع ملحوظ في مدينة الشارقة وهي من التجمعات التقليدية ليس فقط للأرمن وإنما أيضاً لجنسيات عربية أخرى لاسيما شامية. أما في أبوظبي، بالتمركز في الجزء القديم من المدينة القريب من كورنيش أبوظبي رغم بدء الأرمن في الانتشار في أماكن السكن الجديدة خارج إطار جزيرة أبوظبي، أو في الجزر الجديدة مثل جزيرة الريم. وفي دبي، يُقيم الأرمن في أماكن مثل واحة السيليكون، ومارينا دبي، ومنطقة أبراج بحيرات الجميرا، وعموماً لا توجد أماكن محددة في كل المدن المذكورة يقطن فيها الأرمن بشكل مكثف ولافت للنظر.

وعن ممارسة الشعائر الدينية ..هل للأرمن كنائسهم الخاصة في الإمارات..؟

تتبنى دولة الإمارات العربية المتحدة سياسة التسامح والتعايش بين مختلف الجنسيات التي تقيم في الدولة، وتمثل قوميات وملل من كافة أنحاء العالم. وتمثلت هذه السياسة في استحداث وزارة تدعي بوزارة التسامح وكذلك هيئة تسمى هيئة التنمية الاجتماعية والتي تُعني في إصدار تراخيص لعمل الجاليات المختلفة. وفي هذا الإطار تم ضم الكنيسة الأرمنية إلى لائحة الكنائس المعتمدة لدى الدولة.

وحالياً هناك، كما أشرنا، كنيستان تابعتان للأرمن تحت مسمى الكنيسة الأرمنية (مطرانية الأرمن في الإمارات وقطر)، ومقر المطرانية في مبنى مجاور للكنسة الأرمنية في أبوظبي.

وللأرمن، كما كافة الطوائف في الإمارات، الحق في ممارسة الشعائر الدينية الكاملة. ويمكن لأتباع الكنائس والطوائف المختلفة الاحتفال بالأعياد والمناسبات الدينية في المجمعات الكنسية والأماكن والمنازل الخاصة .

لماذا بدأت تتقلص أعداد الأرمن في المجتمعات العربية التقليدية (سوريا والعراق ولبنان ومصر..) ؟

عدد الأرمن في تقلص في الشرق الأوسط عمومًا بسبب الظروف السياسية والاقتصادية المتدهورة في عدد من الدول التي كانت تؤلف محورًا رئيسيًا لوجود الأرمني في الشرق الأوسط، ولاسيما في سوريا ولبنان. مستوى المعيشة في هاتين الدولتين في تدهور مستمر حتى أصبحتا تصنفان في ذيل قائمة الدول من ناحية إجمالي الدخل القومي. ناهيك عن فقدان الأمن والسلام، وأصبح بالتالي من الصعب على الفرد الأرمني أن يجد أملًا للعيش في هذه الدول، وأن يجد مستقبلًا لأطفاله فيها. ومن ناحية ثانية، فإن وجود أرمينيا كدولة مستقلة أصبحت تلعب دور الدولة الجاذبة. كما أن وجود الأرمن بكثافة في دول مستقبلة للاجئين مثل أوربا وأمريكا وأستراليا يدفع العديد من الأرمن للتفكير في الاستقرار في تلك الدول لا سيما أن لكل عائلة أرمنية أقارب في كافة أصقاع العالم. أما دول الخليج، ولاسيما الإمارات وقطر، وكذلك حاليًا السعودية تمنح جوًا ثابتًا مستقرًا يُعاكس تمامًا مع السائد في الدول العربية التقليدية.

ما أهم المشكلات التي تواجه الجالية الأرمنية في دولة الإمارات..؟

المشكلة الرئيسية ذاتية أي داخلية تتعلق بالتنظيم. لاتوجد لجنة فاعلة في الجالية تتولى تطوير المجتمع الأرمني وخلق عامل ترابط بين الأفراد، وهناك غياب لرؤية مستقبلية ،وفقدان للحس الإداري، بحيث أصبح الواقع الحالي يتمثل بمجرد إقامة الصلوات والقداديس وشيء قليل خلاف ذلك.

كيف أثر الإبعاد القسري للأرمن عن أرمينيا علي ثقافة الأرمن في الشتات..؟

الإبعاد القسري للأرمن له تأثير سلبي من ناحية إبعاد الأرمن عن جذورهم التاريخية ولاسيما الأرض. فالمعروف أن المجتمعات يمكن أن تستمر لفترات طويلة على أرضها القومية وفي محيطها التاريخي، أما ما تعرض له أرمن الدولة العثمانية فكان تشتيت ما تبقى منهم في دول العالم. رغم أن الأرمن قاموا بتأسيس بؤر خاصة بهم في مدن مثل بيروت وحلب وغيرها ،ولكن مع مُضي عشرات السنين وتوالي المصائب في الدول المضيفة، أصبح الأرمن معرضون للهجرة الاقتصادية هذه المرة، والتي تأخذ في أحيان أخرى طابعاً قسرياً بسبب الظروف الحربية في بعض الدول؛ أي أن خطر الهجرة لا يزال موجودًا رغم مُضي أكثر من مائة سنة من المجزرة الأرمنية .

هل للأرمن مؤسسات اجتماعية وثقافية في الإمارات؟

ليس للأرمن مؤسسات رسمية، غير لجنة إدارة الجالية وهي لجنة شبه رسمية معترف بها من قبل السلطات، وغير ذلك لدى الأرمن عدد محدود جداً من اللجان (اللجنة النسائية، لجنة الشباب، لجنة الكنيسة) مؤلفة من عدد من الأفراد المتابعين للشأن الأرمني. هناك تقصير تنظيمي، بحسب اعتقادي، إذ يمكن عمل المزيد من الناحية التنظيمية والإدارية في الجالية الأرمنية .

ماذا عن التأثير الأرمني في الإمارات والتأثر الأرمني في الإمارات؟

للأرمن تأثير فاعل منذ أكثر من ثمانية عقود في الإمارات ومعظم الأرمن في الإمارات يتضلعون بأدوار مختلفة، بناء على نشاطهم الاقتصادي والتجاري وقدراتهم المهنية. والمسمى الأرمني غير خاف في البلاد، وكثير من سكان الإمارات باتوا يعرفون الأرمن من خلال دولة أرمينيا أيضًا باعتبارها إحدى الواجهات السياحية المعروفة في الإمارات (ضمن قائمة الوجهات العشر الرئيسية).

متي تم إنشاء الموقع ؟

تم إنشاء موقع آزاد-هاي (البوابة الأرمنية في الشرق الأوسط) في عام ٢٠٢٣ باللغة الإنجليزية، مع إضافة آزاد-هاي باللغة العربية عام ٢٠٠٧.

ما الغرض من إنشاء الموقع؟

كان الغرض من إيجاد الموقع هو التأكيد على الوجود الأرمني في الشرق الأوسط، وأهمية التعريف بالدور التاريخى والمعاصر للأرمن في المنطقة العربية.

هل كان يشهد إقبالاً وتفاعلاً مع المادة المنشورة ؟

شهد الموقع إقبالاً كبيراً في تلك المرحلة نظراً لأنه كان الموقع الأرمني الوحيد باللغة العربية، وكانت تلك فترة لم يتكن منصات التواصل الاجتماعي مثل فيسبوك قائمة بعد، ذلك كان اعتماد القراء على المواقع الالكترونية كبيراً .

ما مصادر التمويل ؟ هل مؤسسي أم جهود ذاتية ؟

كانت مصادر التمويل ذاتية تماماً أي من جيبي الخاص، بسبب الرغبة في الحفاظ على الاستقلالية من جهة وعدم وجود أناس يؤمنون بجدوى هذا العمل أساساً .

لماذا اقتصر الموقع علي الأرمن في المجتمعات العربية ؟

حاول الموقع الاقتصار على المجتمعات العربية بغرض التركيز وعدم التشتت ومحاولة البحث بعمق، قدر الإمكان، في الإطار الجغرافي المحدد له (الشرق الأوسط)، مع عدم تجاهل المواضيع الأرمنية الأخرى خارج الإطار المذكور .

ما الجهود التي قام بها الموقع للتعريف بالإبادة الأرمنية؟

كان الموقع يُركز على النشاطات الثقافية والمقالات العامة وغيرها من الموضوعات ؛ أما الإبادة الأرمنية فقد كان موضوعاً قائماً بحد ذاته، ولكن دون جعله مادة أساسية، نظراً لعدم افتقار المجلات والمطبوعات المختلفة من تناول هذا الموضوع بشكل دائم. أما تركيزنا فقد أخذ طابعاً معرفيًا مختلفًا.

لماذا توقف الموقع عن العمل ؟

توقف العمل في الجزء العربي نظراً لعدم تطوير الموقع إلكترونيًا بسبب نقص المصادر المالية، وكذلك عدم القدرة على استمرار دفع مصاريف بعض الصحفيين الذين تعاملوا معنا.

هل متاح عودة الموقع للعمل مرة أخري ؟

متاح فقط عند توفر التمويل المناسب، إذ أن الأمر ليس بالهين. فالجمعيات الأرمنية التقليدية لا تقر بأهمية دور المواقع الإلكترونية، وليس لديها تصور عن كيفية الوصول إلى شرائح المجتمع، بل في معظم الأحيان لا ترى ذلك هدفاً لها. أما سفارات أرمينيا في الدول العربية فهي لا زالت في طورها التأسيسي الأول ولم تتمكن من خلق كوادر إعلامية قادرة على التعامل مع المجتمعات العربية ، ولا تريد أيضاً الاستعانة بالخبرات الأرمنية من دول الشتات أو من خبرات أفراد غير أرمن ممن يجمعون بين الشأن الأرمني والعربي .

هل يتواصل الأرمن في الإمارات مع الوطن الأم؟

علاقات الأرمن في الإمارات مع أرمينيا جيدة جداً أولاً، حصل معظم الأرمن على جنسية أرمينيا، والكثير منهم ثبت إقامته في الإمارات على جواز السفر الأرمني.

هناك عدة شركات طيران تخدم المسافرين إلى أرمينيا من الشارقة ودبي وأبوظبي (طيران العربية، وفلاي دبي، و ويز إير، على التوالي). وهناك نسبة ملحوظة من أرمن الإمارات قاموا بشراء شقة أو منزل في أرمينيا والبعض قام بتأسيس أعمال تجارية. أما بعض العائلات، فتؤثر لأبنائها الدراسة في أرمينيا ولاسيما اللغة الإنجليزية .

لماذا لا يفكر أرمن الشتات في الاستقرار في أرمينيا؟

أرمن الشتات عموماً مستقرون في الدول التي تضمهم، مندمجون في الحياة العامة في بلدانهم ويتمتعون بنجاح واستقرار في المجتمعات التي تحتضنهم، وفي معظم الأحيان لديهم جنسيات هذه الدول.

بالنسبة لدول الخليج العربي، فإنها لا تمنح جنسية للأجانب، لذلك فإن الأرمن القاطنين في دول الخليج لديهم أربعة خيارات : العيش في دول الخليج حتى سن متقدمة كمستثمرين أو أصحاب عمل (حيث يسمح لهم وضعهم الاستثماري بالحصول على الإقامة الخاصة)، العودة إلى البلاد العربية التي جاءوا منها (وهذا خيار غير مرغوب به في الوقت الحاضر بسبب الظروف المعروفة)، السفر إلى الدول الغربية والاستقرار فيها، أو اختيار أرمينيا كموقع سكن نهائي بعد التقاعد.

كل هذه الخيارات متاحة، أما الاختيار الراجح فهو السفر إلى الدول الغربية مع وجود زيادة في أعداد الذين يختارون أرمينيا، لا سيما أولئك الذين يقدرون على شراء شقة أو منزل في موقع جيد في العاصمة يريڤان، تضمن لهم مستوى معهود لهم من الحياة.

رغم العلاقات الطيبة التي تجمع بين البلاد العربية والأرمن ، إلا أننا لا نجد اعترافًا عربياً بالإبادة الأرمنية ؟

من المعروف أن لبنان وسوريا هما الدولتان الوحيدتان اللتان اعترفتا بالإبادة الأرمنية. ولا يحتمل أن تنضم دول أخرى إليهما نظراً لأن الدول العربية عادة منشغلة بقضاياها الداخلية، وليس لديها مواقف محددة من القضايا العالمية. كما أن لدى هذه الدول علاقات جيدة مع تركيا، وهناك عامل الدين، حيث تقوم تركيا باستغلال الرابط الديني وتصوير موضوع الاعتراف وكأنه إدانة للدين الإسلامي، وهذا طبعاً يجافي الواقع ولكنه يدل على سوء استغلال الدين، ليس فقط الآن، وإنما أيضاً أثناء تنفيذ الإبادة، حيث تم شحن الشعب التركي والكردي ضد الأرمن بسبب اختلاف الدين، وتم اتهام الأرمن بأنهم يناصرون الروس. والمتابع الحذق يُلاحظ أن كل من تركيا وروسيا يعملان في كثير من الآحيان في تنسيق جيوسياسى غير مُعلن، الأمر الذي ظهر جلياً في الوقت الحاضر .

متي تعترف تركيا بالإبادة الأرمنية؟

المجتمع التركي بعيد جداً عن الاعتراف بالإبادة الأرمنية، نظراً لأنه مجتمع مليء بالمحظورات والعادات الموروثة منذ أجيال عديدة.

فكثير من قادة تركيا الجديدة (بعد الخلافة العثمانية) هم ممن استولوا على الممتلكات الأرمنية، وأية إدانة للإبادة سوف تؤدي إلى إخراج ملفات كثيرة أمام الرأى العام العالمي تدينهم. كما أن المجتمع التركي يُعاني من قضايا تتعلق بحقوق الإنسان والأقليات وغيرها من المسائل. تركيا عموماً دولة لا تسير نحو الديموقراطية، وقد فاتها قطار الاتحاد الأوروبي منذ زمن، والرابط الوحيد مع الدول المتقدمة هو رابط عسكري (حلف الناتو)، كما أن لتركيا مصالح في القوقاز تتعارض مع مصالح أرمينيا، لأنها تصب في صالح أذربيجان. كما أن تركيا لا تجد حرجًا في مناصرة أذربيجان في اقتطاع أراضي أرمينيا السيادية بحجة التواصل البري مع أذربيجان. وللأسف الأمر نفسه ينطبق على روسيا الحالية التي تلعب دوراً مشبوهًا في القوقاز تخدم مصالحها، ولكن لا تخدم مصالح أرمينيا في الوقت الحاضر.

هل سنشهد مزيدًا من الاعترافات بالإبادة الأرمنية في المستقبل رغم التغيرات السياسية في العالم؟

مع اعتراف الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة الأمريكية وكندا بالإبادة، فإن الإقرار بالإبادة الأرمنية يكون قد حصل على شبه إجماع من الدول المتقدمة والتي لديها باع في السياسة الدولية ، وتتمتع بأنظمة برلمانية تناول الشأن الدولي، لذلك لا أجد أنه من المتوقع حدوث اعترافات أخرى. عموماً فإن بريطانيا وإسبانيا واليابان هي الدول المهمة الثلاث بنظري التي قد تعترف بالإبادة لاحقاً، وقد تتحرك دول أوروبا الشرقية أيضاً في المنحى ذاته، ولكن ليس الآن نظراً لانشغالها بالهجوم الروسي على أوكرانيا. على أية حال، الاعتراف بالإبادة الأرمنية قضية أخلاقية في الأساس وليس فقط سياسية .

دعا أردوغان إلي تشكيل لجنة من المؤرخين والباحثين لتقييم ما حدث خلال الحرب العالمية الأولي. فما وجه الاعتراض الأرمني علي هذه ؟

المؤرخون من كافة دول العالم (ومن بينهم مؤرخون أتراك) لا يشكون أبداً في حدوث الإبادة الأرمنية لدرجة أن الاقتراح التركي لا يعنيهم . المؤرخ الحقيقي يتوصل إلى قناعاته واستنتاجاته بناءًا على الأساليب العلمية التي يتبعها في البحث والاستقصاء والاستدلال وجمع وتحليل الأدلة، كما هو معروف في أي علم من العلوم، لذلك فإن الاقتراح التركي سياسي في الأساس، وهو قائم على اعتبار أن المؤرخين الأتراك هم طبقة واحدة متجانسة تعمل لمصلحة الدولة التركية القومية. وباعتبار أن كل مؤرخ (أو إنسان) تركي معرض للسجن في حال إقراره بالإبادة الأرمنية، يُمكننا أن نلاحظ هشاشة الطرح التركي.

كيف تري الرأي القائل بأن قضية إبادة الأرمن وقعت خلال حرب أهلية ووقع عدد مماثل من الأتراك حين كانت القوات العثمانية وروسيا يتنازعان السيطرة علي الأناضول؟

عادة ما يُطلق تعبير الحرب الأهلية في النزاع القائم بين أطراف قومية واحدة (مثل الحرب الأهلية الإسبانية واليونانية والروسية والمكسيكية وغيرها).

أما الخلاف العابر للقوميات، فإنه لا يُعد حربًا أهلية. بالنسبة للأرمن، فإنهم كانوا أقلية قومية في الدولة العثمانية رغم عدم اعتراف الدولة العثمانية بهم كقومية. تريد تركيا حاليًا المساواة بين خسائر الأرمن البشرية وبين خسائر القومية التركية إبان نفس الفترة، رغم أن الخسائر التركية في الأساس كانت في البلقان ودول أخرى فقدها الجيش العثماني (مثل ليبيا والدول العربية) بسبب خياراتها العسكرية وقوفاً إلى جانب الألمان. أما الخسائر التركية في جبهة الأناضول، فقد كانت أيضاً بسبب الخيارات التركية في مناصرة الألمان ضد روسيا القيصرية، والغريب أن الأرمن عانوا في كل الأحوال سواءً بالإبادة أو بتجنيد مئات الألاف منهم في الجيش العثماني ، أو حتى بخسارة أعداد مماثلة منهم في الجهة الروسية (حيث أن الرعايا الأرمن في الإمبراطورية الروسية كانوا أيضاً مجبرين على القتال ضمن صفوف الجيش الروسي على غرار الأرمن العثمانيين) .

لماذا تغاضت الدول الكبرى عن مذابح الأرمن في حينها في الوقت الذي استطاع فيه اليهود أن ينتزعوا اعترافا بالهولوكوست الألماني ؟

الضربة العثمانية للشعب الأرمني كانت قاصمة جداً، وأدت إلى تحويل الأرمن إلى لاجئين عديمي الحيلة في دول العالم، ولم يكن المجتمع الدولي بعد الحرب العالمية الأولي مؤهلًا بعد لبروز الدول المستقلة حديثاً، بل أن الكثير من الدول وضعت تحت الوصاية الاستعمارية. ومن ناحية أخرى استولى البلاشفة على أرمينيا الشرقية وحولوها إلى جمهورية سوفيتية منعزلة عن العالم بعد اقتطاع أجزاء منها لصالح أذربيجان أصبحت نواة لمشاكل مستقبلية ممتدة حتى وقتنا الحاضر. ولم يجد الأرمن بالتالي أية محافل دولية تقبل بتناول قضيتهم التي أصبحت بحكم المجمدة. فعصبة الأمم كانت وليدة الفكر الاستعماري المتقهقر، وكانت تخدم المصالح الاستعمارية بغض النظر عن المفاهيم الجديدة التي وضعت حيز التداول حينها بشأن الاستقلال الذاتي الدول، والتي جاءت في معظمها تحت تأثير آراء الرئيس الأمريكي ويلسون.

أما الهولوكوست، فقد حصل في ظروف مختلفة، أولاً فإن الهولوكوست تم تنفيذه بأداة غربية (ألمانيا الهتلرية)، وجرى على أرض أوروبا، لذلك فإن المسؤولية التاريخية للاعتراف بها كانت على عاتق أوروبا نفسها في المقام الأول. كما أن الوضع السياسي العالمي إبان الحرب العالمية الثانية كان مغايرًا تماماً مقارنة مع الحرب العالمية الأولى. ومن الأسباب الأخرى التي كانت لصالح الاعتراف الصريح والمباشر بالإبادة اليهودية هو وقوف الولايات المتحدة الأمريكية إلى جانب اليهود، بينما نجحد أن الاعتراف الأمريكي بالإبادة الأرمنية جاء بعد أكثر من مائة عام من الإبادة .

كيف استطاعت الحكومة العثمانية والحكومات اللاحقة بإخفاء جريمة الإبادة الأرمنية؟

كانت تركيا في عداد الدول التي خسرت الحرب العالمية الأولي، لذلك فإن الحكومة العثمانية التي وقعت معاهدة مودروس للاستسلام أصبحت حكومة مسيرة، ولم تكن تمثل الشعب التركي، بدليل أن كمال أتاتورك استغرق فترة قصيرة جداً للإطاحة بالحكومة العثمانية والحلول محلها في كل المناطق التي كانت خارجة عن سيطرة الحلفاء، (وبعدها في كل مناطق تركيا بعد انسحاب الحلفاء). للأسف فإن الحكومة الكمالية مضت في سياسة الإبادة، وحصلت مجازر كبيرة للأرمن في كيليكيا وأماكن أخرى من تركيا بما فيها نكبة أزمير، كانت كلها استمرار للنهج التركي القومي المؤيد لجعل تركيا خالية من أية شعوب أخرى. ولم يكن هذا غريباً، ذلك لأن العديد من القادة الجدد في تركيا كانوا من أنصار جماعة الاتحاد والترقي التي نفذت الإبادة الأرمنية. ولم يكن للأرمن صوت بعد الحرب العالمية الأولى للتعريف بقضاياهم على المستوى الدولي. أما على الصعيد التركي، فإن ممارسات الحكومات التركية ضد الأقليات الأخرى والتي هي مستمرة حتى الوقت الحاضر تدل على وجود خط تركي قومي يُبرر كل ما من شأنه أن يصفي الوجود غير التركي.

أليس في صدور أحكام علي مرتكبي الجرائم من الاتحاديين يعد اعترافًا بمذابح الأتراك ضد الأرمن؟

يمكن اعتبار ذلك اعتراف بالإبادة الأرمنية رغم أن الحكومة العثمانية حينها كانت تعمل تحت ظل الوصاية الأجنبية (إذ أن قوات الحلفاء كانت تسيطر على استانبول حينها)، ورغم أن الموضوع يمكن النظر إليه أيضاً كأداة لتصفية المسائل السياسية العالقة بين القادة الأتراك (فيما بينهم) من جهة وبين الأتراك والدول الأوروبية المنتصرة في الحرب العالمية من جهة أخرى. وكان يمكن أن تكون هذه الأحكام إيذاناً ببناء جمهورية تركية جديدة قائمة على العدل والمساواة والتعددية لولا أن أتاتورك كان لديه توجه قومي واضح لدرجة أنه نفى وجود أي عنصر آخر في تركيا غير الأتراك .

ما رأيك في الموقف الأوروبي من المذابح الأرمنية علي الرغم من الادعاءات المتكررة بحماية الأقليات المسيحية في الدولة العثمانية إلا ان المذابح تكررت ولم يتم منعها؟

الموقف الأوروبي لم يكن حازماً نظراً لتداخل المصالح مع تركيا. والغريب أن الأمر نفسه يتكرر الآن حيث أن دول حلف الناتو تتقبل تركيا على مضض فقط لأن مصالحها الجيوسياسية تقتضي بذلك في مقارعة روسيا. أما في وقت الإبادة الأرمنية فقد كانت بريطانيا وفرنسا تعتبران تركيا (الدولة العثمانية المريضة) كدرع يمنع من التمدد الروسي باتجاه البحر المتوسط ، لأن ذلك كان تهديداً مباشراً لمصالحها التجارية. للأسف فإن الأرمن كانوا مستضعفين إلى درجة كبيرة بحيث كانوا مستعدين للتعلق بأية قشة.

لماذا تظل الإبادة الارمنية باقية وحية في الذاكرة الأرمنية رغم مرور أكثر من مائة عام؟

ذكرى الإبادة لا تنتفي لأن الإنسان (سواء كان أرمنياً أو غير أرمني) لا يميل إلى نسيان أصوله وتاريخه وما حل بأجداده، لاسيما أن تأثير ما حصل لا يزال بادياً للعيان وكل شخص أرمني لا يزال يتأثر بنتائج الإبادة. والأدهى أن الشعب التركي (وامتداده الحالي في الشعب الأذري) لا يجد غضاضة في تكرار المجازر، أي أن أرمينيا مهددة من قبل المنفذين الأصليين للمجازر وروسيا تلعب الدور المشبوه نفسه، أي أن التاريخ معرض للتكرار لأن الأطراف الداخلة في تكوين التاريخ المعاصر لم تتعظ من الماضي .

ما الذي يستند عليه الأرمن في المهجر عليه في تأكيد الهوية وإثبات الذات ؟

الأرمن في دول الشتات معرضون لنسيان لغتهم وتاريخهم وهويتهم طالما لم ينتبهوا لذلك. يمكن للتطورات التكنولوجية المعاصرة أن تساعد الأرمن في الدياسبورا في التواصل فيما بينهم باستخدام وسائط التواصل الاجتماعي المعاصرة، كما يمكن للأرمن الذين يريدون العمل عن بعد اتخاذ أرمينيا كموقع عمل لهم دون فقدان تواصلهم مع الدول الأخرى، فهذه كلها إمكانيات معاصرة تتيح لتعزيز التواصل بين أطياف المجتمع الأرمني وتقوية الصلة مع الوطن الأم وتعزيز الهوية والشعور بالذات. من ناحية أخرى فإن الوسائط المذكورة تتيح أيضاً اندماجاً سريعاً وقوياً مع المجتمعات الأخرى وتشغل الإنسان عن المواضيع المتعلقة بالأصل القومي والتراث ولغة وثقافة الأجداد باعتبارها رابط قادم من الماضي ولا يفيد المستقبل. عموماً فإن أرمينيا جديدة مزدهرة اقتصادياً ومتطورة اجتماعياً ومتعافية سياسية قد تلعب دور المغناطيس ليس فقط للأرمن وإنما لشعوب أخرى تتوق لكل ما هو خير وصالح.



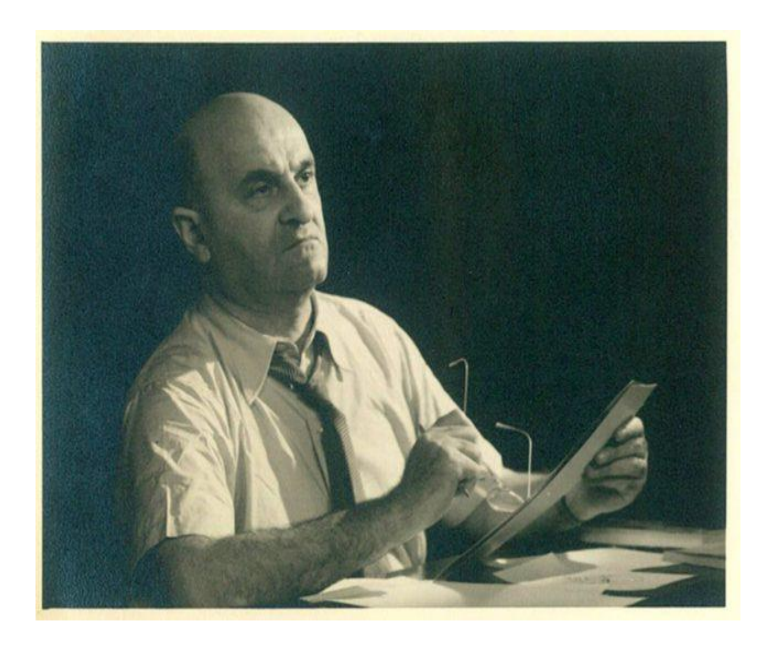
ثقافة الاحتجاج فى مصر
المصرى أفندي نموذجاً

بقلم: د. سحر حسن أحمد

لا شك أن فن الكاريكاتير يُعد فناً ساحراً من فنون الرسم، وهو عبارة عن صورة تُبالغ فى إظهار تحريف الملامح الطبيعية أو خصائص ومميزات شخص ما أو جسم ما بهدف السخرية أو النقد الاجتماعي أو السياسي . كما أن له قدرة على السخرية أو النقد بما يفوق المقالات والتقارير الصحفية؛ إذ أن الصورة الكاريكاتورية تُمثل رسالة من الفنان إلى المتلقي من خلال سياق مشترك قائم على بنية الواقع الذى يعيشونه معاً، وظهر هذا جلياً فى شخصية المصرى أفندي التى قدمها لنا صاروخان.

كما يُعد فن الكاريكاتير من أهم الفنون التى عبرت أى مجتمع ، بالرغم من كونه فناً هزلياً، إلا أنه قد استطاع أن يقدم صوراً واقعيه بشكل ساخر واستطاع أن يُعبر عن الرفض والاحتجاج على الأوضاع. ولا شك أن الكاريكاتير من الفنون الأصلية التى عبرت عن المجتمع المصرى وما يدور به من أحداث فى ظل الاحتلال، فقد كان بداية ظهور هذا الفن فى مصر الحديثة فى مجلة أبو نظارة عام ١٨٧٧م لصاحبها يعقوب صنوع ، ثم فى مجلة الكشكول لصحابها ورئيس تحريرها سليمان فوزى عام ١٩١٤م، إلى أن قدم إلى مصر الفنان الأرمنى ألكسندر صاروخان.

بيد أن صاروخان أكبر وأشهر شخصية أرمنية عملت فى ميدان الصحافة المصرية، حيث كان أكبر وأهم فناني هذا العصر الذى عبر عن العقل الجمعي المصرى.



وُلد فى قرية أردانوش فى باطوم على البحر الاسود عام ١٨٩٨ م وانتقل لتركيا مع أسرته فى عام ١٩٠٩ م. وفى عام ١٩٢٢م سافر إلى فيينا والتحق بمعهد الفنون الجرافيكية، ثم قدم إلى مصر فى عام ١٩٢٤م – بعد أن أنهى دراساته الأكاديمية تلك – بناءًا على دعوة أحد أصدقائه لإصدار مجلة فكاهية ساخرة ، وبالفعل استطاع أن يُصدر عددين من الجريدة المصورة فى سبتمبر ١٩٢٤م، ولكن نتيجة لإفلاس صديقه وتم إغلاقها . وظل حتى مات فى أول يناير ١٩٧٧م بمصر ولم يتركها، ومنذ أن قدم لها عمل فى ميدان الصحافة .

تميز أسلوب صاروخان بالحيوية والحركة العنيفة والمبالغات التى عكست مقدرته على اكتشاف بذرة الفكاهة فى جوهر أى موضوع حتى لو كان مأساوياً .

فالصورة الكاريكاتيرية الصاروخانية فكاهية هجائية؛ فقد كان ألكسندر صاروخان أحد رواد الرعيل الأول من رسامي الكاريكاتير فى مصر الذى تحول الفن بريشته من مجرد نكات وقفشات إلى سلاح سياسي استخدمته الصحف ضد السلطة والإنجليز والأحزاب. وهذا يُعد تمصير للكاريكاتير، وقد نجح صاروخان فى القيام بذلك وأصبح فن الكاريكاتير على يديه فناً مصرياً صميماً. فى تلك الفترة تعرف على بعض محرري الصحف والمجلات والتجار والحرفيين الأرمن واتفق مع أحد الصحفيين على إصدار مجلة فكاهية ساخرة فى ٢٤ يناير ١٩٢٥م، ثم توقفت فى ١٣مارس ١٩٢٦م.

بيد أن القدر والصدفة البحتة لعبا دوراً مهماً عندما التقى صاروخان بمحمد التابعي رئيس تحرير مجلة روز اليوسف حين كان فى ورشة الحفار الأرمنى بربريان، وكان التابعي يبحث عن رسام كاريكاتير فعرض علية العمل معه فى المجلة، ووافق على العمل فى روز اليوسف منذ عام ١٩٢٨م، ومكث لفترة طويلة فيها حتى عام ١٩٣٤م، ثم انتقل مع التابعي لإصدار مجلة آخر ساعة فى عام ١٩٣٤م، وقد أسهم بدور مهم فى إنجاحها ، ثم تركها وعمل فى جريدة أخبار اليوم فى عام ١٩٤٤م، وظل بها حتى وفاته عام ١٩٧٧م .

أثناء مسيرته الفنية قدم لنا صاروخان أكثر من أربعين ألف عمل فنى، فقد نشر رسوماته العديدة فى الجرائد والمجلات العربية والأجنبية منها الجديد (١٩٢٧- ١٩٢٨م) والمستقبل (١٩٢٩ - ١٩٣١م)، وأبو الهول ١٩٣٠ م، والوطنية ١٩٢٩ م وأنا مالي (١٩٣٦ - ١٩٣٧ م) ، والبورصة المصرية (١٩٣٨ - ١٩٤٠م)، وإيماج (١٩٤١ - ١٩٤٣ م) ، والبروجرية إجيبسيان (١٩٤٢ - ١٩٤٦ م).

عندما بدأ صاروخان فى مجلة روز اليوسف وعمل مع محمد التابعي بتلك المجلة، ثم انتقل إلى آخر ساعة معه أيضاً، وبعدها إلى جريدة أخبار اليوم. كان صاروخان وقتذاك لا يرسم الكاريكاتير السياسي، ولا يعرف من اللغة العربية إلا القليل، ولا يعرف أيضا أشكال الساسة المصريين.

وعندما سأله التابعي . لماذا لا ترسم الكاريكاتير السياسي؟

قال له صاروخان كيف ؟ فأجابه من التابعي السيدة روز اليوسف، وقالا سنريك كيف، وأخذا يعلماه، كما أحضروا له صور الساسة المصريين . كانا يقترحان علية الفكرة المراد رسمها ؛ ثم يقوم هو بالتنفيذ. وهذا ما حدث مع شخصية المصرى أفندي.

كانت السيدة فاطمة اليوسف هى صاحبة الفكرة ، وقد أوحت بها لصاروخان ، كانت مجلة "الكشكول" المنافس الوحيد حينذاك لمجلة "روز اليوسف " ترسم شخصية "جحا" وتحركها فى صورها السياسية، فأرادت روز اليوسف والتابعي أن يكون لمجلتهما شخصية خاصة بها تنطق فى الكاريكاتير برأي الجريدة. فبحثوا فى الصحف الأجنبية ووجدوا مجموعة من الشخصيات الكاريكاتورية مثل ماريان الفرنسية وجون بول الإنجليزية والعم سام الأمريكية . كما كانت هناك أيضاً شخصية الموظف المرتشي التى أبتكرها هنري دوميه الإيطالي لتكون أداة لشن الحملات الانتقادية السياسية على الفساد، فوجدوا من بين كل هذه الشخصيات شخصية تشبه "المصرى أفندي " منشورة فى " الديلي إكسبريس للفنان " ستروب يلبس قبعة ويحمل فى يده مظلة ، فاقتبسا شخصيته .

وهكذا وُلد المصرى أفندي - كشخصية كاريكاتورية - على صفحات مجلة روز اليوسف فى عام ١٩٣٢ م شخصية رجل قصير القامة بدين نوعاً ما بطربوش ونظاره سميكة ، ومسبحة في يده ! وكانت مهمة الرسام صاروخان هي الرسم فقط.

ولعبت هذه الشخصية الكاريكاتورية الشهيرة دورًا هائلًا في السياسة المصرية على مدى سنين طويلة ، ودخلت في مواجهات ومعارك وصدامات مع الزعماء ورجال السياسة، انتهت في كثير من النيابات و المحاكم و السجون . فالصورة المبتكرة تمثل إحدى صور الاحتجاج علي الواقع السياسي والاقتصادي في مهاجمة سياسية الاحتلال، فبالرغم من أن من اختلاف موطن وجنسية صاروخان إلا انه كان يُمثل صرخة ضد الظلم وعصا تُرفع فى وجه كل من يُوالى سياسة الاحتلال. تلك الورقة تطرح نوعاً من الاعتراض على السياسات المخالفة لرغبات الشعوب وهى اقرب للفهم فى اقل السطور لتحمل رسائل لاذعة كثيراً ما انزعج السياسيين

من خطورة هذه الصورة . وكان أول ظهور لها على صفحات روز اليوسف ، وبالتحديد على غلاف العدد رقم (٢١٢) فى ٧ مارس ١٩٣٢م. مثلت شخصية المصرى أفندي فلسفة الناس فى الشارع ، واتسمت بالوعى العميق كما أنها عبرت عن العقل الجمعي المصرى.

وجسدت كل عاطفة مصرية، وعلى لسانه خرجت الحكم والنكات والسخرية اللاذعة والانتقادات المتباينة.

وكان رمزاً خالداً للمصري المعروف بطيبة القلب. لذا، عُد المصرى أفندي من علامات روز اليوسف البارزة . ظلت هذه الشخصية قائمة حتى عام ١٩٥٨م ، إلى أن حل محلها شخصية العربى أفندي . فى تقديري أن ظهور شخصية المصرى أفندي فى هذا التوقيت كان نوعاً من المد الوطنى ، وربما يُعد هذا نتاجاً بعيداً لثورة ١٩١٩م.

كانت شخصية المصرى تجسيداً للهوية المصرية كاريكاتورياً، حيث عبر الفنان من خلالها عن معاناة المواطن المصرى وكفاحه ضد الاحتلال الإنجليزي واستبداد القصر ولا مبالاة الأحزاب . ولم يقف الأمر عند صاروخان على اقتباس الشخصيات فقط ؛ بل كان الرسم إلى جانب واقعيته فإن الأحداث فيه تأخذ أبعاده المكانية والزمانية بكل أمانة وصدق مما يجعل قارئ اللوحة واحداً من أبطالها ؛ لذا فهو بذلك يُساهم فى تأريخ الأحداث والوقائع وهذه أحد المهام الطبيعية والصعبة لفن الكاريكاتير الصحفي .

ذهب إلى التابعي وكتب معه عقدا للعمل فى آخر ساعة فى عام ١٩٣٤ م ولكن روز اليوسف ذهبت إليه وبكت بكاءًا مريراً.. ويقول صاروخان : إن دموع المرأة أقسى من الرصاص ، ولم يستطيع صاروخان الصمود أمام دموع روز اليوسف وعاد للعمل معها.

على أنه كان من الصعب عليه الاستمرار فى روز اليوسف بعد أن تركها التابعي الذى كان صاروخان مرتبطًا به أشد الارتباط فقد كان يعمل تبعا لتوجيهات التابعي .. وهكذا عاد صاروخان للعمل مع التابعي وأصبح الرسام الوحيد لمجلة `آخر ساعة `، وكان يتقاضى أكبر مرتب فى المجلة فى ذلك الوقت وهو ثلاثون جنيها .

وبالفعل صدر العدد الأول لآخر ساعة فى ١٤ يولية ١٩٣٤م، إذ نجد على الغلاف رسماً يهاجم حزب الشعب وهو حزب الحكومة – حكومة إسماعيل صدقي – وبعدها حكومة عبد الفتاح يحيي.. وهو الحزب الذى كان من أعضائه – النواب والشيوخ – تخرج الغالبية الذين يضمهم البرلمان.

لذا فهناك العديد والعديد من الرسوم التى قدمها لنا صاروخان، لكنى سأكتفى بعرض بعض نماذج منها . وقد مثل المصرى أفندي فيها " الشعب المصرى " بأكمله وما يعانيه من ظلم وفساد واحتلال .... الخ



التعليم ودوره في بناء الأمة والدولة



بقلم: أشرقت محمد رفعت
كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة

لطالما كان التعليم أحد أهم المؤشرات التي توضح لنا مدى تماسك وتقدم الدولة، وفي مِصرنا، فقد كان التعليم والثقافة هم الوسائل الأساسية في مواجهة الاستعمار عبر تاريخنا. مما يدفعنا لنفكر، على أي أساس يُحدد ما يُقرر على التلامذة وما الاتجاه الذي تحدده وزارة التربية والتعليم (المعارف سابقًا) لتنتهج عليه الأجيال؟

فالبعض ينظر إلى المناهج الدراسية برؤية قصيرة المدى ويرى أنها مجرد أوراق وامتحانات ينتهي دورها مع انتهاء الطالب منها، وعلى النقيض تمامًا، فالعلاقة بين المناهج الدراسية ومدى تأثيرها على فكر الشعب واتجاهه علاقة قوية ومترتبة، لأن التعليم هو ركيزة نشأة أجيال واعية بحالها وقادرة على التغيير. ويظهر هذا في أوائل القرن العشرين، فقد كانت وزارة المعارف العمومية في تلك الفترة تُجري مسابقة بين المؤلفين ليتقدموا بمؤلفات في إطار المقرر، لتُطرح على الوزارة من ثم تختار من بينها في النهاية ما يناسبها.

فلك أن تتخيل أن مقرر الجغرافيا لطُلاب الصف الثالث الثانوي بعام (١٩٢٧-١٩٢٨) كان بعنوان (أفريقية وحوض النيل ومصر والسودان)، والذي شمل أدق التفاصيل حول مصر والسودان آنذاك جغرافيًا من حيث التعداد السكاني الدقيق وفقًا لإحصاءات حديثة، حجم الصادرات والواردات بين مصر ومُختلف الدول بقيمتها الدقيقة وبذكر أهم البلاد التي يُصدر إليها ويُستورد منها، الصناعة، العلاقات الخارجية،



المناطق الطبيعية وغيرها من المواضيع الدقيقة والتفصيلية للبلاد.

لكن ما يلفت النظر، تناول المنهج الدراسي وطرحه طُرقًا لإصلاح الحالة الاقتصادية في هذا الوقت، ففي تلك الفترة انتشر التعليم في مصر بين طبقات الشعب المختلفة والذي جعلهم يشعرون بضرورة السعي خلف التغيير وترقية مستوى معيشتهم، والذي تطلب زيادة الثروة العامة لكي يتماشى مع هذا التطور المجتمعي .

فطرح خططًا إصلاحية دقيقة تناولت مشاكل تلك الفترة من أزمة الأراضي الزراعية وانجراف السكان نحوها، أزمة الاعتماد على الغلة الواحدة ألا وهو القطن، وليس ذلك فحسب، بل طرح بدائل يُمكن أن تتصدر مصر فيها زراعيًا بما يتناسب مع الطبيعة المناخية والحصيلة المائية لمصر في هذا الآن.

وتطرق المقرر إلى النظام الجُمركي وقواعد وضع الضرائب الجمركية بما يتناسب مع الوضع الاقتصادي والسياسي للبلاد، مع طرح النسبة الضريبية وتعليل سببها، فيفهم المتلقي على أي أساس تُحدد السلع وتدار الأنظمة الجمركية والذي لم يخلو من النقض وعرض عيوب هذا النظام الجُمركي الذي أوصلنا لدور الصناعة وكيف يمُكن استغلال الموارد المتاحة لزيادة الاعتماد الداخلي بدلًا من الأجنبي.

فهذا الطرح الاقتصادي كان مُثيرًا للاهتمام، لأن كل تلك المعلومات طُرحت لطالب بالصف الثالث الثانوي ليأخذ شهادة البكالوريا فقط!

فالغرض من أن يتخرج الطالب مُلمًا ببلده وواعيًا لما يحدث من حوله من حراك سياسي واقتصادي، وهذا الغرض برز في مقدمة الكتاب في قولهم "..فقد رأينا حاجة تلاميذ الفرقة الثالثة بالمدارس الثانوية إلى مؤلف في الجغرافيا يجمع بين ما تفرق من مقررها في شتى الكتب التي ليست في متناول أيديهم ولا تتسع لمراجعتها أوقاتهم. فوضعنا هذا الكتاب راجين أن يكون سداد الحاجة..".

فتعكس تلك المقدمة حاجة المصريين بعد أن انتشر التعليم بين جميع الطبقات إلى هوية يتمسكوا بها في ظل الصراع بين الهوية الوطنية وهوية الاحتلال البريطاني وبين الهوية الأموية، والذي ظهر في العنوان الخاص بالمقرر "أفريقية وحوض النيل ومصر والسودان"، موضحًا علاقة مصر ودورها في محيطها الأفريقي والمتوسطي لكي يجيب على سؤال الهوية الذي لم يكن هناك مفرٌ منها آنها. ويأتي هذا بغرض تعريف الطالب بدوائر الأمن القومي الخاصة بمصر وأين يقع المصري بينها. وبالفعل كان لتلك المقررات دور في صُنع مقاومين الاستعمار وأنشأت عقلًا جمعيًا لمحاربته، فكان فكر الوزارة التي تُعلم أبنائها من الطبقات المتوسطة والفقيرة مؤمنًا بقدرتهم على التغيير، والذي كان يصب نحو فكرة بناء الأمة ووضع الثوابت القومية للبلاد في ظل وجود الاحتلال.

والمناهج الدراسية لم تكن فقط المنبع الوحيد للتعلم والانخراط في المجتمع، فكانت الصحافة لها دورٌ فعال في تنمية الوعي بالمناخ السياسي والاقتصادي من حولهم.

فبعام ١٩٥٩، كانت "كلية البنات" تصدر صحيفة مدرسية بشكل دوري كلها تنبع من الأحداث الجارية والفكر الجمعي للمجتمع بذاك الوقت ألا وهو "بناء جيل عربي واعٍ مستنير"، فكل الطلاب المشاركون مرتبطون بأيدلوجية العصر ورغبات ما بعد ثورة ١٩٥٢ وجلاء الإنجليز عن مصر على جوانب متنوعة، فيعرضون ما حدث من أوجه مختلفة وفقًا لاهتماماتهم، مثل الفن والأدب في المعركة، المرأة في المعركة، قصص تُحاكي أفكارهم تجاه تلك تقلب المناخ السياسي في البلاد، والذي في النهاية سيخلق لنا شباباً ذهنه مرتبطٌ بالواقع.

القاهرة لم تكن المركز الوحيد لمساحات الرأي والتثقيف، بل كان للمحافظات نصيبٌ منها أيضًا. ففي الإسكندرية نجد للصحافة دورٌ فعال، مثل صحيفة "مدرسة الرمل الثانوية الجديدة"، حيث كانت صحيفة المدرسة وخاصة لوجودها في محافظة دون العاصمة نجدها تعكس واقع المحافظة والطلاب بشكلٍ خاص وأحداث الدولة بشكلٍ عام، فنجد فيها الحديث عن صاروخان، المؤتمر الوطني للقوة الشعبية ١٩٦٢، نقدٌ بناء للمدرسة في صحيفتها الخاصة، السد العالي، وغيرها من المواضيع التي تقع في صلب حياتهم اليومية. ونجد ربط الطُلاب بالواقع لا يقتصر فقط على عرض الاهتمامات والمواضيع الحيوية، بل يوجد مساحة للتعامل مع المسؤولين. فبهذا العدد نجد طلاب المدرسة في لقاءٍ صحفي مع "حمدي عاشور" رائد الحكم المحلي بمحافظة الإسكندرية، والذي نجد فيها الطلاب ينتهزون الفرصة ليُجيبوا عن أسئلتهم حول تطبيق القيادة بالمحافظة ومختلف المشروعات المتواجدة، فالغرض من تلك اللقاءات الصحفية تفتيح أذهانهم حول المشاكل والحلول بمحافظتهم، لأن لا مفر من تلك العقبات التي ستكون بين أيديهم عاجلًا أم أجلًا.

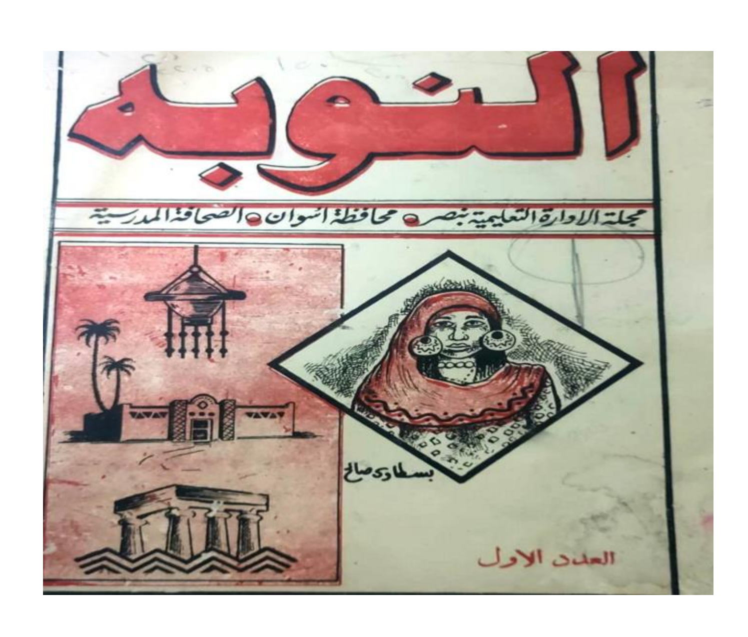
وكان للنوبة حظٌ من انعكاس الصحافة عليها، فتناولت الصحيفة المدرسية الصحافة في شتى مراكز أسوان! لكي لا يقتصر على الطلاب التعبير في إطار مدرسي، بل يُمكنه التماس الخارج أكثر وأكثر، مع تسليط الضوء على الأنشطة والمبادرات النوبية من خلال عرض محاولات التطوير المستمرة .

كل المدارس بمُختلف أماكنها التي ذُكرت في هذا المقال هي مدارس حكومية تمامًا، لكن اليوم، نجد أن المدارس الحكومية على الصعيد المحلي تُعامل الطالب كأنه عدد، رقمٌ إضافي ليس له رأي أو كيانٌ منفرد، والذي هو في نهاية الأمر أكثر من نصف المواطنين!

تلك الصحف المتنوعة من مختلف المحافظات تُشكل وثيقَّة تُثبت أن الكتابة والتعبير لهم أدوار مهمة في نشر ثقافة التغيير بين الشباب، فلكي ندعو الشباب والشابات إلى التطوير وحثهم على المبادرة والإقدام، لن يتم إن كانت أياديهم وألسنتهم مُقيدة. فوجود مساحات تعبير خاصة مُنذ الصغر يُنمي قدرة الفرد على أن صوته مسموع، وله الحق في استعماله كأداة تغيير.

فحين الآن ومع مرور قرابة المئة عام، فأصبح الاتجاه التعليمي مختلفًا تمامًا، فصارت المناهج تتناول طرحًا للأحداث مع ترك باب البحث مفتوحًا للطالب، لأن تلك المعلومات لم تعد أولوية كُبرى كما كانت في السابق مقارنةً بالمهارات المكتسبة، فصرنا نعمل على اكتساب المهارات التي يُمكن توظيفها في "سوق العمل" وكيفية دخوله والمنافسة فيه، لأن المجتمع صار يعتمد على مدى كفاءة الفرد في أداء العمل، حتى وإن كان في إطار ثقافي.

والذي ظهر في خطة تطوير التعليم الجديدة، فكان التغيير مُهتمًا أكثر بتطوير ألية التعلم ومهارات الفرد في البحث والتفكير، والتوسع عن أفق المعروض من المقرر، عكس السابق حين كان الهدف من المقرر الإلمام بشتى التفاصيل لصعوبة الوصول إليها.



تلك التغيرات هي محاولات جادة وحقيقية لمواكبة ما وصل إليه العالم من حولنا، لكنها تحتاج عقل جمعي مُدرك لأهمية دور شكل المقرر وألية التعلم في مواكبة العصر، مثلما كان هناك إدراك لأهمية دراسة الدولة بكل تلك التفاصيل في مقرر واحد لطلاب البكالوريا، فقد كان هناك التفاف حول هدفٍ واحد، فيجب أن يشعر الطالب أن المقرر يصُب في مصلحته وتنمية مهاراته لكي يساهم في بدوره إكمال عجلة إيصال المقرر.

في عصرنا الحالي، أجدُ أن العمل على كلا الجانبين هو أمرٌ بالغ الأهمية، فالجانب التوعوي والثقافي للمواطن هو كفةٌ أخرى من ميزان دوره المجتمعي، الذي لا يتوقف على مهاراته ومدى قدرته على توظيفها، فلا يُمكن أن يحدث تغيير أو تطور بدون الوعي بالمشكلات الراهنة وبنقاط القوة والضعف. فشمول المقررات على مُختلف جوانب الحياة السياسية، الاقتصادية والاجتماعية للدولة يعطي للفرد مساحة للمشاركة الواعية في المجتمع مع وجود المهارات اللازمة التي تواكب يومنا هذا. فالسعي للتغيير والتطور يجب أن يصحبه مساحة لنمو الأفكار وتغلغلها في الواقع، لكي يُحقق التعليم المرجو منه.

حرب الفلاحين
جريمة الفيلق المصري في الحرب العالمية الأولى



بقلم: أحمد محمد إنبيوه

بعد سنوات طويلة من انتهاء الحرب العالمية لا تزال كثير من آلامها حية حبيسة النسيان وتحتاج لمن يُعيدها فائرة التأثير في خلايا الوجدان الجمعي المصري. فجرائم المستعمرين يجب ألا تنتهي بالتقادم تحت أي ذريعة ما. وهنا يأتي كتاب محمد أبو الغار الجديد المنشور مؤخرًا عن دار الشروق ٢٠٢٣، بعنوان " الفيلق المصري جريمة اختطاف نصف مليون مصري". ليُعيد الاهتمام بجرائم بريطانيا في حق المصريين إلى دائرة النقاش العام، فجرائم الاحتلال – الوطني أو الأجنبي – في حق الأوطان لا تنتهي صلاحية المطالبة عنها أبدًا. ما حدث من بريطانيا في حق المصريين، مثال واضح على الحجم الهائل للتكلفة المادية والبشرية المباشرة للاحتلال.. إذ أن مصر كما سنرى مولت بريطانيا أثناء الحرب بالأموال والرجال معًا. في مقابل هذا لم تظفر باعتذار أو تقدير لما تم بذله، بل وذابت هذه الجريمة الفجة في نهر التاريخ، ومن هنا تأتي نوعية من الكتابات والدراسات لتُعيد قدر من الضوء لأكثر المناطق وحشية في الوجدان المصري، وبالطبع هذا أحد أدوار التاريخ إعادة إنتاج الذاكرة الجمعية حتى لا ننسى، حتى لا يسقط بالتقادم بعض أكثر الأفعال جرمًا في مسيرة الحياة الإنسانية عمومًا، ومسيرة إنسان وادي النيل خاصة.

التكلفة الإنسانية لا زالت كجرح غائر مطالعة تفاصيله تفتح من جديد طاقة من الألم، لكنها ضرورية حتى لا ننسى، وهذه بالمناسبة هي ميزة أن نملك وعيًا جمعيًا بالتاريخ. تاريخ يُحاول قراءة الألم بوصفه جين ألفي في مسيرة الشعب المصري في علاقته مع سلطته الحاكمة.. ومن ثم، يمكن القول أن تاريخ الفيلق المصري هو جزء من تاريخ طويل للسخرة في مصر. السخرة التي كانت أداة في يد السلطة في مصر في القرن التاسع عشر لاستخدام طاقة المصريين قسرًا وبدون أجر في مشاريعها الكبرى، والتي تم إلغاؤها في عام ١٨٧٧م، لكنها استمرت كممارسة؛ فقد استمرت الحكومة تجبر مجموعات سكانية أقل لحماية المنشآت المائية في الفيضان بنظام السخرة. هذه السخرة، سهلت، باعتبارها تقاليد بيروقراطية، اعتياد قواعد الإدارة المصرية التعامل مع جماعة المصريين بوصفهم أشياء يُمكن تحريكها من هنا لهناك

لخدمة السلطة دون وازع. كان لهؤلاء الفلاحين ذاكرة ثقيلة وذكريات قاتمة عن سنوات قضوها بعيدًا عن أهلهم وبلادهم. ذاكرة مريرة لكنها لم تفارق شفاهية أصحابها إلا قليلاً، لتغدو مكتوبة مسجلة؛ ذلك أن الأغلبية العظمى منهم لم تكن تجيد القراءة والكتابة. وربما لم يتبق ساكنًا في الوجدان الشعبي من هذه الرحلات سوى أغنية "بلدي يا يلدي وأنا بدي أروح بلدي، بلدي يا بلدي والسلطة خدت ولدي". أجزاء من هذه الذاكرة الثقيلة، وجدت بقاياها في كتابات ومذكرات معاصري ذاك الزمن. فثمة عدد من الشهادات التي تذهب في كليتها إلى أن تجميع الفلاحون لم يتم أبدًا طواعية، وأجبر الفلاحين تحت التهديد والقمع للانضمام للفيلق. والملاحظ، عمومًا وفي هذه الشهادات تحديدًا، أنه خلال عمليات تجميع الأعداد اللازمة للفيلق كان انصياع الإدارة المصرية في قواعدها الريفية لقواعد الخسة لا قواعد العدل أو أبجديات الظلم الهابط من أعلى والذي تطال شظاياه الجميع .

كتب سعد زغلول في مذكراته عن تجميع الرجال للعمل في فيلق العمل المصري قائلاً: "حضرت اليوم من مسجد وصيف في الإكسبريس الأول بعد أن بت في العزبة ليلتين، ورأيت الناس يشكون من كون مدير الغربية كلف العمد بأن يقبضوا على الناس ويسوقوهم إلى القطار. وتوجهت إلى رشدي، رشدي باشا رئيس الوزراء، وأخبرته فوعدني بأن ينظر في المسألة، وأخبرت عدلي، عدلي يكن باشا، في الكلوب بهذا الأمر.

وكان رجال السلطة ينتظرون الفلاحين في الغروب وقت عودتهم من الحقول فيحوطون بهم كالدواب". من جهة أخرى نجد علي بركات يقول "إن العمال المصريين لم يلتحقوا بالفيلق تطوعًا كما تقول بريطانيا. ثم استطرد علي بركات يقول: إن المعاناة الكبرى للفلاحين المصريين كانت خلال تجنيدهم للعمل لحساب الجيش البريطاني في أثناء الحرب، ولا زال الفلكلور المصري يحفظ بين ما يحتفظ به ذلك الموال الحزين الذي يبدأ بالمطلع الشهير: «بلدي يا بلدي والسلطة أخدت ولدي.. يا عزيز عيني وأنا بدي أروح بلدي»، والذي تردد في جنبات البلاد خلال سنوات الحرب العالمية الأولى؛ تعبيرًا عن كل أنواع القهر والإجبار التي مارستها سلطات الاحتلال تجاه الفلاحين المصريين، وحتى في المراحل الأولى التي تقول الوثائق إن العلاقة كانت قائمة على قبول التطوع فإن الوثائق البريطانية نفسها تدحض هذا الرأي، ففي شهادة لأحد الضباط المسئولين عن إمدادات الجيش البريطاني أنه كان في زيارة لأسيوط ووجد قائد المعسكر البريطاني يحيط مناطق تواجد العمال المصريون بالأسلاك الشائكة ."

في محاولة استكمال رواية الهول الذي عاشه المصريين في أعماق الصعيد وبدرجه أقل في الدلتا، وذلك من خلال الكتابات الشخصية، نتوقف لدى عباس خضر في كتابه «خطى مشيناها»، يقول: " أصاب الناس ذعر شديد من شيء أسموه السلطة. كانت الشرطة تخطف الشباب من الشوارع ويذهبون بهم إلى المركز كي يرحلوا إلى السلطة، وعرف الناس بعد ذلك أنهم كانوا يأخذونهم للخدمة في الجيش الإنجليزي. في الريف كان العمدة ومشايخ البلد يختارون أنفار السلطة ويرسلونهم إلى المركز، وكانت مثل الضريبة التي تتحملها كل عائلة. تعطل التعليم في المدارس بالمدينة وسكن فيها الجيش الإنجليزي". لقد قامت السلطات البريطانية بكل أنواع الضغط الممكن على السلطة المصرية حتى تقوم بتجنيد الفلاحين المصريين في الفيلق، وواضح أنه باستثناء الفترة القصيرة الأولى في الحرب العالمية الأولى التي تطوع فيها بضعة آلاف للعمل في الفيلق، كان تجنيد الأغلبية العظمى من الفلاحين يتم باستخدام قوة رهيبة غير آدمية وتتنافى مع جميع حقوق الإنسان. موقف الحكومة المصرية بقيادة رشدي باشا كان مزريًا، وكانت قرارته تثير الغثيان؛ فهو لا يؤيد إصدار قرارات وزراية بتجنيد الفلاحين في الفيلق، ولا بإرسال المجندين كعمال في الفيلق واعتبار المدة التي يقضونها هي فترة الخدمة العسكرية الإجبارية، وإنما يفعل ما هو أسوأ من ذلك بتجنيد الشرطة المصرية بالكامل بدءًا من مديري المديريات ثم مأموري المراكز والعمد لاستخدام العنف والقوة في إرسال الفلاحين، وذلك بدون إصدار قانون لهذا العمل. ثم كان تطوع الحكومة المصرية بدفع جزء من مرتب الفلاحين، وأخيرًا إعطاء للحكومة البريطانية لدفع مرتبات فلاحي الفيلق،

هذا يعني أن الحكومة المصرية أرسلت الفلاحين إلى أرض الحرب للعمل بالقوة الجبرية لخدمة بريطانيا العظمى، وأيضا دفعت مرتباتهم وهي الحكومة الفقيرة مع وجود نقص في المال والغذاء.

تأثيرات الفيلق على الواقع المصري وقت الحرب العالمية الثانية

لقد تسرب كثير من العنف، الذي ضرب الواقع المصري في أوائل القرن العشرين، من أولئك العائدين من خدمة الجيش البريطاني. إذ يشير الكاتب صلاح عيسى على سبيل المثال، أن أحدًا لم يربط بين الشغل في الفيلق وبين نمط الجرائم التي سادت في مصر في أعقاب الحرب العالمية الأولى؛ فكانت في غالبيتها جرائم تتسم بالتوحش الذي لم يكن معروفاً من قبل في تاريخ الإجرام المصري. بل إن عيسى في تفسيره لظاهرة التوحش الإجرامي لريا وسكينة، أرجع جزء من التحلل الأخلاقي لرجال ريا وسكينة لميراث الإجرام الذي تعرضوا له أثناء عملهم في الفيلق المصري في الحرب العالمية الأولى. فحسب الله حين عاد من سفرته الأولى، وجد زوجته تدير بيتًا للبغاء السري ولم يعترض، وحين عاد المرة الثانية من الفيلق وجد ريا وسكينة قد فتحتا بيت الكامب وهو أكبر مشروعات البغاء، وكان البيت قريبًا من أرض فضاء كانت مقراً لتجميع الرجال للفيلق .

وكان القاسم الأعظم في سيرة كل الذين عرفوا باسم رجال ريا وسكينة هو الشغل في السلطة، وهو مصطلح شاع استخدام خلال سنوات الحرب العالمية الأولى وما بعدها. ويقول صلاح عيسى إن ما يقرب من مليون ومائتي ألف فلاح مصري تطوعوا بإرادتهم أو سخروا على الرغم منهم ليقوموا نيابة عن جنود الحلفاء بكل ما هو ليس عسكريًا في المجهود الحربي؛ يحفرون الخنادق ويمدون الأسلاك الشائكة ويقيمون أعمدة التليفون والتليغراف، ويزيلون تلال الرمال ويمهدون الطرق وينشئون خطوط السكك الحديد. ويحملون الذخائر ويجرون المدافع ويكنسون المعسكرات، ويحملون الطعام وينظفون الدواب ويغسلون الأواني والملابس.

كل هذا العمل في الفيلق جعل كثير من المصريين يدركون أن ثمة عالم آخر غير الذين كانوا يحيون فيه، لكنه أيضا أورثهم طاقة غضب على حياتهم في مصر، بخاصة أن شاهدوا الحرب والخراب فكأنما أنفسهم ذاتها أصابها الخلل. ورغم هذا لم يكن تأثير العمل في الفيلق عميقًا على المدينة المصرية، لكنه تأثيره كان هائلاً على الريف والعمق المصري البعيد في ريف الصعيد بدرجة كبيرة والدلتا بدرجة أقل .

من جهة أخرى قامت السلطات البريطانية بكل أنواع الضغط الممكن على السلطة المصرية حتى تقوم بتجنيد الفلاحين المصريين في الفيلق، وواضح أنه باستثناء الفترة القصيرة الأولى من الحرب العالمية الأولى التي تطوع فيها بضعة آلاف للعمل في الفيلق، كان تجنيد الأغلبية العظمى من الفلاحين باستخدام قوة رهيبة غير آدمية وتتنافي مع جميع حقوق الإنسان. كان واضحًا أيضًا محاولة إخفاء الضغط البريطاني ومحاولة إخفاء العملية بأكملها عن العيون في بريطانيا، خوفاً من هجوم بعض الصحف البريطانية الحرة التي تؤمن بحقوق الإنسان، أيضا من مناقشة الأمر في مجلس العموم وهو ما قد يؤدي إلى إحراج الحكومة. ولتفادي الالتحاق بالفيلق؛ هرب الفلاحون إلى الأراضي الزراعية وتفادوا الظهور في الأسواق أو المدن. بعض الفلاحين قرروا أن يكونوا في خدمة السلطة ممثلة في الشرطة والعمد حتى يحموهم من الالتحاق. وأدى ذلك إلى معارك بين الفلاحين والشرطة، فقتل حوالي ٢٠٠ رجل شرطة في الصعيد في أثناء سنوات الحرب، وتم استخدام القوة والحبس والأسلاك الشائكة والحبال لمنعهم من الهرب من معسكرات الاعتقال. تركزت المقاومة في الصعيد ووصلت قمتها في مركز ملوي في المنيا .

يمكن القول إذن، كان هناك ثلاثة جوانب تحكمت في دخول الفلاحين إلى فيلق العمال وأثرت في أحوال مصر وفلاحيها. أولها فوائد ومضار الالتحاق بالفيلق بالنسبة إلى الفلاح، وثانيها تأثير الفيلق على نقص العمالة في الريف المصري والأثر السلبي على الزراعة وبوار الأرض، وثالثها الطريقة التي دخل بها الفلاح إلى الفيلق.

ولم يذكر أحد خطورة تصدير بذرة نبات القطن التي تكون جزءًا هامًا من غذاء المصريين، وكان تصدير الذرة أحد أسباب نقص الغذاء. ولم يكن نقص الغذاء يشمل فقط القمح والذرة وزيت بذرة القطن، ولكنه شمل أشياء أخرى كثيرة من ضمنها الفول والشعير. توقف الاستيراد وزاد الطلب على الحبوب ونقصت الأغذية في المدن، ثم بعد ذلك في الريف. ارتفعت أسعار الغذاء ثلاثة أضعاف ووصل الحال إلى أن النقود لم تكن قادرة على شراء الطعام بعد أن استهلكت القوات البريطانية كميات هائلة من الغذاء، وأدى ذلك إلى احتفاظ الفلاحين بالمحصول ورفض بيعه وجعله للاستخدام الخاص .

لوجستيات تكوين الفيلق

وفي عام ١٩١٦ أقيمت معسكرات لإقامة الفلاحين قبل إلحاقهم بالفيلق في سمالوط والمنيا والفيوم ثم أقيم معسكران كبيران في أسيوط وسوهاج.. وفي الإسكندرية كان معسكر الحضرة يستقبل العمال عند وصولهم لتجهيزهم ليكونوا عمالاً بالجيش الإنجليزي؛ حيث يتم تنظيف الفلاحين وإعطاؤهم مطهرات، ثم ملابس وبطاطين، ثم يقسمون إلى مجموعات من خمسين، كل مجموعة يختارون منها رئيسًا تكون له حيثية في بلده الأصلي، ويفضل أن تكون كل مجموعة من قرية واحدة أو قرى متجاورة. وكل عشر مجموعات من ٥٠٠ فلاح يكونون وحدة تحت إشراف ضابط .

كانت الرحلة مجهدة، والفلاحون مربوطين بالحبال خوفاً من هروبهم، وفي مراكز التجمع كانوا يحشرون في حجرة واحدة بأعداد كبيرة لمدة قد تمتد لأسابيع.. كانت الرحلة من القرية إلى المركز رحلة قاسية؛ لأن الزوجات والأمهات والأطفال انطلقوا خلف الرجال المحاصرين والمربوطين بالحبال، وكان العويل والصراخ وقذف الطوب أمرًا شبه روتيني في هذه الرحلات، ولم تنجح الشرطة في منع المصاحبين لموكب العمال الذين تم أسرهم، وظل هذا المشهد حاضرًا في ذهن الفلاحين والمودعين. وكانت الرحلة داخل مصر تطول لتأخر الوحدات الصحية في الكشف على الفلاحين، الذين قد بدورهم قد يقضون أسابيع في مراكز الشرطة في انتظار الكشف الطبي، والبعض تم حبسه في زنازين، وكانت المعاملة غير آدمية. وأدى ذلك لاحتجاجات وتظاهرات في أماكن عديدة. وحدث في فارسكور في عام ١٩١٨ أن ألقت الجماهير الأحجار على مراكز البوليس، وحاولت اقتحام المركز ولكن الشرطة قاومت وأطلقت النار .

وعن تنظيم العمل وماكينة إدارته داخل فيلق العمل، كان الضباط المسئولون عن الفيلق نوعين، في البداية كان الكثير من المقيمين في مصر من الإنجليز، أو جنسيات أخرى، كانوا يكلفون للعمل في الجيش لمرافقة الفيلق، لأنهم كانوا يعرفون اللغة العربية، ويستطيعون التعامل مع المصريين، بالرغم من أنه ليس لديهم تدريب عسكري سابق، وبعد ذلك تم اختيار ضباط من الجيش البريطاني لأن لديهم قدرة أكبر على التحكم والقيادة لفلاحي الفيلق. بدأ عمل الفلاحين مقابل ٥ قروش في اليوم، و٦ قروش للعاملين في فيلق الجمال. ويحسب يوم العمل منذ الوصول إلى فرنسا في أوروبا، وفي سيناء وفلسطين من يوم بدء العمل الفعلي. ورفع المبلغ فقط في أوروبا إلى ٨ قروش في الأشهر الأخيرة من أيام الفيلق. وكانت هناك استحالة في تحويل أجور الفلاحين من عملهم في فرنسا لأهاليهم في مصر، ولم يتلق أهالي الفلاحين الذين لقوا حتفهم في فرنسا التعويضات المناسبة المتفق عليها. وكان يتم اعطاء العمال زي موحد كاكي مكون من جاكيت وبنطلون قصير وغطاء للرأس من الصوف وبطانيات للنوم. ويأخذون وجبات من الطعام تكفيهم، وتتكون الوجبة من رطلين من الخبز البلدي وشوربة عدس ولحمة وبصل وتمر وزبيب وزيت طعام وملح وفلفل وبسكويت. وبالرغم من عدم تنوع الأكل من يوم إلى آخر، فهذا يكفيهم، وهو أكثر من الطعام الذي تعودوا عليه في قراهم، ويمكنهم بهذا الطعام أن يقوموا بأعمال شاقة.

كان تجنيد الفلاحين بالقوة بعقد محدد المدة في الفترات الأولى، ومن جانب آخر كان على كل فلاح التوقيع على إقرار بالموافقة على الالتحاق بالفيلق وعلى الشروط المكتوبة، والفلاحين لم يستطيعوا القراءة والكتابة. ولكنه تحول أحيانًا إلى عقد مفتوح، والعقد به تفاصيل كثيرة،

وقام الفلاح تحت الضغط والتهديد ببصمة الإصبع على العقد دون أن يعرف القراءة وبدون أي نوع من الشرح لمحتويات العقد، وحتى بعد التوقيع لم تلتزم بريطانيا بشروطه من حيث المدة حين قررت مدها لفترات أطول من المنصوص عليها برغم احتجاج الفلاحين ولا توجد معلومات واضحة عن تعويضات أعطيت لعائلات المتوفين في الحرب أو المصابين ومساعدة تأهيلهم للعمل بعد العودة .

الفيلق في الحرب.. فجعة الفلاحين

كانت مشاركة الفلاحين في الحرب العالمية الأولى مشاركة محورية لبريطانيا أكثر من مليون مصري تم تجنيدهم وقتل أكثر من ٣٠ ألف فلاح وأصيب ١٠ آلاف أصبحوا مشوهين. وأصدر وزير الحربية قرارا في ٢٠ يناير ١٩١٦ باستدعاء الاحتياطي للخدمة، ثم تم جمع الحيوانات من جمال وثيران وبقر وجاموس وحمير، وساعدتهم حكومة رشدي، وتمت مصادرة المحاصيل. واعترفت لجنة ملنر بأن ذلك كان من أسباب الثورة.

تميزت فترة الحرب العالمية الأولى بغزارة المعلومات عن تفاصيل المعارك على جميع الجبهات. أما المعلومات الخاصة بالفيلق المصري فكانت محدودة للغاية لسببين، أولهما هو الرقابة على الصحف بواسطة الحاكم العسكري الذي منع نشر أخبار عن الفلاحين الذين تم تجنيدهم في الفيلق المصري خوفاً من إثارة الغضب بين الشعب المصري، والسبب الثاني هو أن الفلاحين كانوا أميين بالكامل، وبالتالي لم ينشر شيء بأقلامهم عن حجم المأساة التي وقعت عليهم وكيف تعايشوا معها، وكانت كل الحكايات شفهية. وفي ظل الغياب اللحظي لتدوين الأحداث، كان هناك بعض الضباط الانجليز الذين دونوا بعض الملاحظات، كما كتب بعض الصحفيين عن معارك بعينها، ولكن الرقابة العسكرية البريطانية لم تسمح بكل شيء. وكان من بين الضباط الإنجليز ملازم – فينابلز – أوكل إليه مهمة قيادة مجموعة من الفلاحين المصريين تراوحت ما بين ٥٠٠ و٨٠٠ فلاح، وكان مهتمًا أيضًا بتسجيل الأحداث، وكتب مذكرات على الآلة الكاتبة بعد نهاية الحرب، وكتب يوميات وأرسل خطابات كثيرة .

وقد تم جمع هذه الأوراق وأودعت في مخازن المتحف الحربي البريطاني الإمبريالي. وعن خطاباته ومذكراته استطاع محمد أبو الغار أن يقدم لنا يوميات فيلق العمال بدرجة عالية من الحيوية .

تقدم لنا كلمات فينابلز تخطيط شبه واقعي لما كان عليه الحال اليومي في الفيلق، فكان الضابط المسئول يحدد في بداية اليوم نوع العمل المطلوب من الفلاحين، والريس يبلغ الرسالة إلى الفلاحين، ويكمل فينابلز قائلًا: "واكتشفت أن الريس دائمًا يكون ذكيًا ومتفهمًا بمرور الوقت، وإذا كان الريس ليس على مستوى من الذكاء فإنه يترك مكانه لفلاح آخر من الأنفار. وبناء على تعليمات الضابط، يقوم الريس بتوزيع العمل على الأنفار، وهناك مجموعات صغيرة تعمل مع بعضها، وتتنافس لإنجاز العمل بسرعة وكفاءة. لاحظ أن الأنفار المتميزين دائما يكون معهم ريس متميز. ويعهد الريس لمجموعة بحفر الأرض، ولمجموعة برفع الحفر، ولمجموعة بحمل التراب على الأكتاف إلى المكان المطلوب، ويكون الضابط سعيدًا بالقدرة التنظيمية للريس. وكانت هناك كوته للعمل كل يوم عن كل مجموعة أن تنتهي منها. وكان لدى الضباط الانجليز معايير عنصرية في التعاطي والتعامل مع العمال المصريين، فقد اعتبروا أن الفلاحين ما داموا يتناولون وجباتهم الغذائية ويرتدون ملابسهم فلا قلق، حتى دفع المرتبات في هذه الحالة ليس ذا أهمية.. ومن ثم كان على العمال الانتهاء من العمل مهمًا كان صعبًا حتى لو استمر ساعات طوال بعد الغروب .

وقد قام الفلاحون في الفيلق بجميع الأعمال المساعدة للمجهود الحربي البريطاني. فقد قاموا بشحن وتفريغ السفن ونقلوا التموين عبر الصحراء بالجمال، وقاموا بتعبيد الطرق ووضع قضبان السكك الحديد وأنابيب المياه، وكثير من الأعمال المختلفة لتسهيل الحياة للجيش البريطاني. بالإضافة لبناء خطوط السكك الحديد، لتسهيل الحركة في سيناء وفلسطين.

قررت السلطة البريطانية مد خط سكة جديد من القنطرة على شاطئ القناة بحيث يكون على مقربة من خط سير القوات، ثم مد خط أنابيب مياه للشرب، القوات، ثم مد

خط أنابيب مياه للشرب، وكان ذلك يحتاج لعدد ضخم العاملة، وتم حل هذه المشكلة عن طريق فيلق العمل المصري. كما كان العمل في بناء السكك الحديد يعتمد على تسوية الأرض تمامًا؛ وهذا يعني حجم كبير من الرمال والطين، وأحيانًا كان يستلزم إضافة رمال لرفع مستوى مناطق معينة، وفي جميع الأحوال كانت كمية الرمال تحمل على الأكتاف لمسافات مختلفة وكان على كل مجموعة حمل عدد من الأمتار المكعبة تقدر بواسطة الضابط كل يوم، وذلك على حسب طبيعة الأرض. ولم تكن هناك تكنولوجيا فكانوا يستخدمون الفأس والمقاطف .

وفوق هذه المصاعب، كانت الأحوال الجوية القاسية التي كان على العمال العمل تحت وطأتها، فبينما كان الفيلق المصري في سيناء تحت وابل طلقات وقذائف الأتراك، كانت رياح الخماسين ورمالها العنيفة تغطي الأجسام وتقفل العيون، ومع شدة الحرارة وقلة الماء وكل ما كان يساعد على استمرار الحياة، كانت الأمور غاية في الصعوبة في أثناء المشي لأميال طويلة، واختلط الطعام واللحوم والمياه بالرمال، وامتلأت العيون والأنوف كذلك بالرمال. والمفارقة المثيرة للسخرية أنه في نفس الوقت، كانت جريدة المقطم الموالية للإنجليز تكتب أن الفلاحين يرتدون ملابس ملائمة تمامًا للظروف الجوية. وفي الشتاء في فلسطين، انهمرت أمطار شديدة واستمر المطر أيامًا وغرق المعسكر وملابس الفلاحين والبطاطين بالكامل في ظروف لم يشهدوا مثلها في بلدهم. وأصيب الكثير من الفلاحين بالبرد، ولم يستطع عدد كبير منهم العمل، وكان عليهم الذهاب على الأقدام في المطر والطين عدة كيلومترات حتى يصلوا إلى المستشفى المصري في فلسطين .

ومن ثم يمكن القول إن العمل لتمهيد الأرض لوضع القضبان كان سهلاً نسبيًا في شمال سيناء. أما في فلسطين فكانت مرتفعات ومنخفضات وكانت الأرض صلبة فكان العمل شاقًا ومجهدًا وخطيرًا. كما قام الفلاحون بأعمال ضخمة في الموانئ لتفريغ السفن؛ فكانوا في القنطرة يفرغون ٣١ طنا في الساعة وفي أحد الأيام استطاعوا تفريغ ٦٢٨ طنا من سطح ١٨ سفينة .

وفي ربيع عام ١٩١٧ عندما وصل أفراد الفيلق المصري بالسفن لميناء مارسليا عبر المتوسط. كانت تلك هي واسطة رحلة الشقاء فقبلها كانت رحلتهم من قراهم مشيا بالأقدام إلى مركز التجمعات، ومنها إلى الإسكندرية ثم كانت رحلة مجهدة لرجال لم يعبروا بحرًا من قبل، ولم يصعدوا على سطح سفينة في حياتهم، بل إنهم لم يشاهدوا بحرًا طوال عمرهم. فهم لم يخرجوا من قراهم، وأقصى ما شاهدوه هو المدينة الصغيرة في المركز. كان الذهاب إلى القاهرة أمرًا نادرًا لم يحدث للغالبية العظمى من الفلاحين، أما الوصول إلى الإسكندرية ومشاهدة البحر الكبير فهذان كانا شبه مستحيلين بالنسبة إلى أغلبية الفلاحين. وحينما وصلوا لفرنسا كان عمل الفلاحين على الشواطئ بشكل أساسي، وهم يستريحون في الخنادق التي يحفرونها في الأرض بدون تحركات بعيدة بينما في سيناء وفلسطين كانوا في حركة. كان الصقيع شديدًا والفلاحون لم يتعودوا على هذا البرد. خارج المعسكر كانوا في وحدة؛ القرى المحيطة يتكلمون لغة لا يعرفونها ولهم ثقافة وفكر وطريقة لبس وحياة مختلفة تماما عنهم؛ ولذا كان عليهم أن يلزموا الخنادق وكان المترجمون من المغاربة لهم لهجة مختلفة تمامًا، والطعام كان مختلفًا ولحم الخنزير كان مشكلة كبرى لهم. وكان المعسكر محاطاً بأسوار من الأسلاك الشائكة، وكان ممنوعًا على الفلاحين مغادرته أو الذهاب إلى القرى الفرنسية المجاورة. من جهة أخرى كان الفلاحون يقومون بتحميل الأغذية والمعدات في الخطوط الخلفية للقوات المحاربة، وقامت الطائرات الألمانية بقذف المواقع التي بها فلاحون مصريون في دنكيرك وقتل وجرح عدد منهم. وأصيبوا بحالة من الذعر؛ لذا تم نقلهم إلى مناطق أخرى صيف ١٩١٧. ومات الكثير منهم في هده الأثناء، ولم تسجل الوثائق البريطانية جميع الوفيات.

وعن الحالة النفسية للفلاحين المصريين، يتحدث فينابلز: فجأة سمعنا صوتًا مكتومًا من الناحية الأخرى من الوادي وشاهدنا دخانًا يرتفع، ورأينا جملين منطلقين في رعب في اتجاه الشرق خلف خطوطنا، وسقطت بعض القنابل

في الوادي وبعضها ناحيتنا. ولم أكن أعرف ما سيكون تصرف المصريين حيال ذلك وهل سيتحملونه. مررت أمام الفلاحين لأطمئنهم، وطلبت أن يرقدوا في الحفر التي قاموا بحفرها. وبالرغم من أن معظمهم كانوا يرتعشون فإنهم استمروا في الانبطاح، ولكن حين سقطت قنبلة على مجموعة من الفلاحين الذين كانوا لحسن الحظ ثابتين في الحفر، قاموا مسرعين يجرون بسرعة في كل اتجاه خوفًا من الانفجارات، وانهار البعض وبقي البعض في الحفر مذعورًا. وفجأة أصبح المئات ينطلقون بسرعة في الوادي والتزم البعض بالتعليمات وبالتأكيد كانوا في وضع أكثر أمانًا ممن يجري، وعندما رأوا الضابط واقفًا وقفوا هم الآخرون. والبعض على عكس توقعي استمر في الانبطاح بل كانوا ينادون بأعلى صوت على زملائهم الفارين طالبين منهم أن يبقوا في مواقعهم، والبعض كان يمسك بتلابيب من يحاول الفرار ليمنعه. وهذه تصرفات مذهلة لبعض العقول المصرية التي تتصرف في أثناء الأزمات .

من جهة أخرى، إذا أردنا أن نأخذ شريحة أخري من حيوات فلاحي الفيلق المصري، الذين عاشوا زمن الهول العظيم في الحرب العالمية الأولى. يمكن أن نتوقف لدى ما كتبه عصمت سيف الدولة في مذكراته والمسماة "مذكرات قرية"، عن بعض ذكريات أهل قريته في فيلق العمال، يحكي سيف الدولة عن يونس الذي يقول إنهم وصلوا إلى بلاد الفرنساوية في بلدة اسمها "كالي" وكانوا خمسمائة. كانوا مقسمين إلى مجموعات كل منها ٢٥، وكانت مجموعته من الهمامية والقرى القريبة (يعني بلديات)، وكان ريس هذه المجموعة "ثابت معوض" من قرية العثمانية. واستلمهم ضابط من أصل مغربي يلبس ملابس الضباط الفرنسيين ويتكلم عربية مكسرة، وأخذوهم بالعربات مسافة ٣ ساعات حتى وصلوا بعد المزارع إلى معسكر به خيمة كبيرة، واستلم كل فلاح ٣ بطاطين وحذاءًا جلديًا برقبة طويلة فوق الركبة، ثم جاءوا بالطعام من خضار ولحم به الكثير من الدهون وخبز طويل ملفوف. ويقول إن الولد قبيس ابن سالم قام من النوم ينادي على الريس ثابت ليذهب إلى دورة المياه وكانت خيمته قريبة، وكان عنده مغص في بطنه وكان يصرخ بأنهم أطعموهم لحم الخنزير هؤلاء الكفار. وصحوا في الفجر ليغتسلوا وقاموا لأداء صلاة الفجر وتناولوا للإفطار عيشا ملفوفا ولبنا باردًا وجبنا وشربوا قهوة خفيفة مثل الشاي الخفيف، وأخذتهم العربات ساعتين حيث وقفوا عند جمع من الضباط والمهندسين ومعهم خرائط، ورسموا على الأرض بالجير وقالوا: احفروا بين الخطين على عمق متر .

وكانوا يعملون من الصبح إلى المساء مع راحة ساعة للغذاء، ويوم الأحد تأخذهم العربات ومعهم المغربي خليفة إلى مدينة كالي حتى يتفسحوا. بعد شهرين كانوا قد حفروا ٣ كيلومترات. الريس ثابت عرف كيف يتعامل مع الفرنسيين وكان يطلب من العمال البطء في العمل حتى تنفذ مطالبهم من اللحم الأحمر والشاي الثقيل والسجائر، إلى أن جاء الشتاء ونزلت الأمطار وأغرقت الخنادق التي حفروها وملأت الحفر التي كانت تستعمل كدورات مياه. ثم نزلت الثلوج ومرض قبيس ومات من البرد وأرادوا تغسيله والصلاة عليه ودفنه، ولكن الفرنسيين أخذوه في عربة بعيدًا. فأضرب العمال عن الطعام لمدة يوم، كما أضربوا عن العمل، وأخذ الريس ثابت يقرأ القرآن طوال اليوم، ثم أفطر العمال ورفضوا الذهاب للعمل، وبعد ثلاثة أيام أعطوهم إفطارًا فقط ثم طلبوهم خارج الخيام ووقفوا وأخبرهم المغربي أن من يجلس سوف يضرب بالنار، فقال لهم الريس ثابت: أنتم رجالة، واتفقوا على الجلوس جميعا فجأة، فلم يطلقوا النار، وجاء الجنرال الذي تحدث عن حبه لمصر وزيارته لها، وأنهم في حرب وأن أولادهم الفرنسيين يموتون كل يوم وأنه في زمن الحرب لا بد من العمل. وقال: أعرف أنكم مرهقون ولكنكم تعيشون مثل الآدميين وليس حياة الكلاب كما كنتم تعيشون في بلادكم. وما إن قال ذلك حتى صرخ الريس ثابت وضرب الجنرال بالكوريك فشق صدره ومات في الحال، ونظر يونس حوله فوجد المجموعة كلها مقتولة بالرصاص ولم يصبه هو شيء. وجاء خليفة وقال له: لا تتحرك فقال لهم: إنني جريح ولا يجوز قتل الجرحى، فحبسوه في خيمة صغيرة، وبعد أسبوع أخذوه إلى كالي ومنها إلى مركب حمله إلى بورسعيد ومشي إلى

الإسماعيلية. وسأل عن محمد سلمان الذي أعطاه جنيهًا ونصف وعاد إلى قريته والحمد لله، وهو الوحيد الذي كان من الهمامية. هذه الحادثة التي يرويها د. سيف الدولة نقلا عن شاهد عيان غير مدونة في جميع المصادر المتاحة عما حدث للفيلق في فرنسا، وسألت كايل أندرسون عنها فأجاب أنه لم يعثر على مصدر آخر لها.

الحرب والثورة والفيلق المصري

ثورة ١٩١٩م التي يعرفها المصريون ثورة مدن وأفندية، ولكن ثمة ثورة أخرى كانت تعتمل عواملها في باطن الوادي والدلتا بعيدًا عن السطوة الفكرية للمدن الكبرى. صحيح أن الريف المصري اشترك في الثورة، ولكن حجم هذه المشاركة وقدرها وشدة عنفها وتأثيرها لم يكن معروفًا بوضوح، وكان الاعتقاد الشائع أنها امتداد لثورة المدن التي قادها سعد زغلول، وتأييد للوفد ومشاركة مع المصريين من سكان المدن. لكن أبو الغار لديه وجه نظر أخرى؛ إذ يقول: ولكنني أستطيع أن أؤكد أن ثورة الريف المصري كانت ثورة أخرى تمامًا، لها أسباب مختلفة كل الاختلاف، وكانت أشد عنفاً وقوة من ثورة المدن، وكان تعامل الإنجليز معها أكثر عنفاً وأثارت ثورة الفلاحين رعبًا شديدًا لبريطانيا. هذه الثورة ظهرت بوادرها قبل ثورة ١٩١٩ بعام كامل، أي خلال عام ١٩١٨، حين عم الغضب الريف المصري بسبب العنف والجبروت اللذين صاحبا تجنيد الفلاحين في فيلق العمال المصري، والذي أدى إلى انخفاض الأيدي العاملة في الريف، وبوار الأرض الزراعية وانخفاض المحصول وارتفاع الأسعار. ثم تدهور الإنتاج الزراعي بسبب نقص اليد العاملة وارتفاع الأسعار الذي أدى إلى مجاعات. فشرارة القبض على سعد زغلول ربما تكون السبب المباشر لثورة المدن والطلبة والموظفين وكبار الملاك، ولكن الريف كان قد بدأت ثورته قبل ذلك وانتقلت مع ثورة المدن إلى ثورة عنيفة دامية. وانطلقت الأخبار الصحيحة مع الشائعات بما حدث للفيلق ورجاله وموت العديد منهم وإصابة الكثيرين، وانعكس هذا على المزاج العام، وانطلقت أغاني سيد درويش التي تشرح الحالة السيئة للناس بعدد كبير من الأغاني التي غطت مصر كلها ومنها أغنية "سالمة يا سلامة" التي لا تزال شعبية في مصر في القرن الواحد والعشرين.

وبالتالي فثورة الريف هي ثورة سببها الجوع والظلم بالإضافة إلى القهر الذي صاحب تكوين فيلق العمال، وما حدث للفلاحين في الفيلق من مآس خلال الحرب، وهذه الثورة لم تكن تفكر في برلمان ولا دستور ولا إلغاء للحماية، وإنما كانت تريد الطعام وحماية رجالها من الخطف إلى فيلق العمال. وكانت ثورة شديدة العنف، وسببها هو الجوع بسبب تصرفات السلطة البريطانية خلال الحرب العالمية الأولى، والسبب الآخر يتمثل في تجنيد أكثر من نصف مليون فلاح في الفيلق حين كان تعداد مصر ١٢ مليونًا، وقد مات منهم أعداداً كبيرةً وأصيبت أعداداً أخرى، وعاد الفلاحون غاضبين وناقمين على الإنجليز؛ ولذا كان غضبهم عارمًا وشاركوا في الثورة بقوة. كان تأثير سحب أكثر من نصف مليون فلاح من مجموع أقل من مليون فلاح مصري لخدمة الجيش البريطاني كعمال في الفيلق المصري تأثيراً رهيباً على الزراعة في غياب أي نوع من الميكنة؛ فبارت الأرض الزراعية ونقص إنتاج الحبوب بشدة، وحيث إن الجيش الإنجليزي سحب كميات من الإنتاج المحلي المحدود فأدى ذلك إلى غضب شديد، وسببه الواضح هو تصرف الاحتلال الإنجليزي والجيش البريطاني تجاه الفلاحين في الريف .

ما حدث في الريف كان ثورة كاسحة لم يتوقعها الإنجليز وشلت حركة الجيش البريطاني تمامًا. فالفلاحون الذين عادوا إلى قراهم وشاهدوا بأعينهم موت زملائهم وأقاربهم وهم يدفنون في هذه الأرض البعيدة. والبعض قد أصابه التعذيب والإهانة بسبب الضرب من الضباط الإنجليز.

ظهر هذا الغضب الشديد في لحظة قيام الثورة في المدن يوم ٩ مارس، وما إن عرف الفلاحون بذلك حتى تفجرت ثورتهم العنيفة الهائلة في أنحاء القطر المصري كافة. وتحول الغضب المستمر في مناطق مختلفة خلال عام ١٩١٨ إلى ثورة جامحة، فقاموا برفع خطوط السكك الحديد أمام جميع القرى ودمروا أعمدة التليفونات والتلغراف فتوقفت الاتصالات بين القوات البريطانية وبين وحداتها في الأماكن المختلفة.

وكان تعامل الإنجليز مع ثورة ١٩١٩ عنيفًا جدًا، ولكن العنف كان أكثر شدة في الريف. في المدن أطلقوا الرصاص وقتلوا بعض المتظاهرين وقاموا بنفي الزعماء والقبض على البعض. ولكن في الريف كان التعامل رهيباً، وقامت الطائرات البريطانية بقذف بعض المناطق، وتكبدت القوات البريطانية خسائر في الأرواح، كما قتل عدد من المدنيين البريطانيين الذين يشغلون مناصب كبيرة في الحكومة.

وانتشرت المظاهرات كالنار في كل جنبات الوادي والدلتا. وصاحبها انتشار أغنية "باردون يا ونجت"، التي غناها الجميع آنذاك، والتي كانت دليلا على المس الثوري الذي لحق بالجميع في كل مكان .

بـــــاردون يـــــا ونجـــــت بلـــــدنا غلبـــــت
خـــــدتوا الشـــــعير وجمـــــال وحمـــــير
والقمـــــح كثـــــير اعتقونـــــا
طلبوا الإعانة يا غلبي يانا شوفوا المدير ياما لم كتير
من غير تقدير ارحمونا أنفار تسافر وكمان عساكر
ســـــابوا الغيطـــــان وراحـــــوا الميـــــدان
لجبـــــل لبنـــــان في الخنـــــادق
قـــــال بيلومونـــــا شـــــوفم رزونـــــا
لـــــولا العمـــــال مـــــا مشـــــيلهم حـــــال
وســـــط الرمـــــال بالبنـــــادق
بـــــاردون يـــــا ونجـــــت بلـــــدنا غلبـــــت
قتلـــــوا ولادنـــــا نهبـــــوا بلـــــدنا
أخـــــدوا دريســـــنا اعتقونـــــا

(من أرشيف وزارة الخارجية البريطانية)

هذه الأغنية التي ينشدها الثوار في الشارع تعبيرًا عن الغضب العارم.

وختامًا، كانت الحرب العالمية الأولى انعطافة مهمة في التاريخ الإنساني، لكنها في السياق المصري كانت حربًا على الفلاحين المصريين؛ أولئك الذين كتب عليهم المشاركة فيها رغمًا عنهم، عبر فيلق العمل المصري الذي ضم بين نسيجة الدامي أكثر من مليون مصري استهلكتهم ماكينة الحرب، مخلفة عشرات الألوف من القتلى والجرحى، ومخلفة أيضا ذكريات ورصاص وبارود التصقت رائحته بأجسادهم رغم العودة.

مشاركة جبرية تعدت تكلفتها الجانب الإنساني، رغم فداحته، لتتحول إلى خسارة اقتصادية هائلة على اقتصاد بلد فقير صغير آنذاك كمصر.

خسارة اقتصادية شملت قوة عمل الأساسية التي انتزعت لخدمة جيوش الحلفاء دون مقابل، بل والأدهى دفعت حكومته غير الرشيدة مرتبات هؤلاء العمال، مما زاد بالتبعية من ثقل الخسارة. بجملة طويلة وحزينة، كانت حرب الفلاحين الذين أجبروا على مساندة قوات جيش الإمبراطورية البريطانية من سيناء لفلسطين لليونان لفرنسا وإنجلترا وبلجيكا. كانت الحرب لهم ألما ساحقًا، وذكريات ثقيلة وأنفس كسيرة. هؤلاء الفلاحين الذين مهدوا الطرق وأقاموا أعمدة البرق والتلغراف، وأقاموا آلاف الكيلومترات من السكك الحديدية، وأقاموا بنية تحتية هائلة للقوات المتحاربة، ولم ينالهم سوى الرصاص والبارود والموت في النهاية لأعداد هائلة منهم. موت دون أن تعترف بريطانيا إلى اليوم بما قام به "فيلق العمل المصري". وهذه هي الحرب العالمية الأولى التي يجب أن نتذكرها؛ حرب الفلاحين الذين سقطوا من الذاكرة رغم ما قدموه. هذا هو ما يجب أن نحتفي به، ونعيد تأسيس مكانته في ذاكرة الآلام الطويلة لمسيرة الأنسان المصري الدامية.



النواب الأقباط في البرلمان المصري والقضايا العربية
١٩٢٤ - ١٩٥٢ م

بقلم: د. ملاك نجدى أبوضابة

اهتم البرلمان بمجلسيه بمناقشة العديد من القضايا العربية التي كانت تطرأ على مسرح الحياة السياسية من وقت لآخر ، وكان لبعض النواب الأقباط موقفهم إزاء هذه القضايا سواء برؤيتهم الخاصة أو بالاشتراك في المناقشات أو التضامن مع غيرهم من الأعضاء. وقد أتت قضية العلاقات المصرية السعودية في مقدمة القضايا العربية ، نظراً لما بين الدولتين من روابط دينية وتاريخية ومصالح مشتركة. إلا أن هذه العلاقات ساءت نتيجة لعدة عوامل منها ، المنافسة الخفية بين الملك فؤاد والملك عبد العزيز آل سعود من أجل الخلافة، التي أعلنت الحكومة التركية زوالها في سنة ١٩٢٤م، وحادث المحمل في سنة ١٩٢٦م. وعدم اعتراف مصر كالدول الأجنبية الكبرى مثل بريطانيا وفرنسا وروسيا بعبد العزيز آل سعود ملكاً علي الحجاز في سنة ١٩٢٧م وظل الأمر كذلك حتى توفي الملك فؤاد في أبريل سنة ١٩٣٦م ، فعادت العلاقات بين البلدين وعقدت معاهدة الصداقة في ٧ مايو من نفس السنة ، اعترفت فيها مصر بالمملكة العربية السعودية دولة حرة ذات سيادة مستقلة استقلالاً تاماً .

كما تم الاتفاق بينهما في أول سنة ١٩٣٧م علي برنامج استقبال المحمل والكسوة الشريفة إلي الأراضي الحجازية في تلك السنة.

وقد رحب لويس أخنوخ فانوس أفندي في مجلس الشيوخ بعودة العلاقات الودية الطيبة بين مصر والمملكة العربية السعودية . وأشار إلي اعتزازه بتمثيل مصر في موسم الحج واعتبره أعظم تمثيل لأن مصر ينظر إليها كزعيمة من جميع البلاد الإسلامية ، ورأي أن تحتفظ مصر بهذه المكانة .

ومع قيام الثورة العربية الكبرى في فلسطين في أول أبريل سنة ١٩٣٦م، وتفجر الأوضاع بها وافق النواب الأقباط مع غيرهم من أعضاء المجلس على اقتراحين تقدم بهما حمد الباسل باشا نائب مديرية الفيوم ، وعباس الجمل نائب القاهرة تضمنا إعلان البرلمان عن أسفه إزاء الأحداث المحزنة في فلسطين ، وتعاطفه مع الشعب الفلسطيني وإعجابه بعزته وإبائه وتضحياته في سبيل استقلاله .

وقد قام النواب الأقباط فى كافة مديريات القطر المصرى بمجلسي النواب والشيوخ بالتضافر مع إخوانهم النواب المصريين ورفض قرار الأمم المتحدة فى ٢٩ ديسمبر عام ١٩٤٧م، الذى يقضى بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود، وأعلنوا أن فلسطين عربية ، وتم دعوة الدول العربية وشعوبها للوقوف إلى جانب مصر فى رفض هذا القرار الغاشم . ووافقوا على مشروع الحكومة المصرية الذى قدم فى مجلس النواب بتاريخ ٥ مايو ١٩٤٨م، والذى يقضى بتخصيص مبلغ مائة ألف جنيهًا مصريًا من المال الاحتياطي العام لتحمل نفقات معيشة المهاجرين الفلسطينيين إلى مصر .

ومن القضايا العربية الأخرى الذي عني بها البرلمان بمجلسيه قضية الوحدة العربية ، فقد أعلن مصطفي النحاس باشا في خطاب العرش الذي ألقاه في البرلمان في مارس سنة ١٩٤٢م، أنه قد آن الأوان لتوجيه قسط أكبر ونصيب أوفي من العناية بتوطيد أواصر الود والإخاء والتعاون بين مصر والأمم الشرقية الشقيقة التي تربطها بها أسباب كثيرة من الدين واللغة والجوار واتحاد الآلام والآمال .

وحينما ألقي مصطفي النحاس باشا بيان الحكومة في الرد علي خطاب العرش بمجلس الشيوخ في ٣ يناير سنة ١٩٤٤م، أوضح أن حكومته تعمل على جمع كلمة البلاد العربية ولم شملها وتوطيد التعاون فيما بينها على ما فيه خيرها وتحقيق أمانيها، فعنيت عناية خاصة بمشروع الوحدة العربية، وبدأت في استطلاع آراء الحكومات العربية المختلفة ، المعترف باستقلالها والتقريب بين هذه الآراء، والتمهيد لعقد المؤتمر العربي في مصر لاتخاذ ما يراه من القرارات لتحقيق الوحدة التي تنشدها الأمة العربية.

وقد انعقد هذا المؤتمر في ٢٢ مارس سنة ١٩٤٥م برئاسة محمود فهمي النقراشي باشا، وتم توقيع ميثاق جامعة الدول العربية. وقد أجيل مشروع القانون الخاص بالموافقة علي ميثاق جامعة الدولة العربية وملاحقه إلى مجلس النواب، الذي أحاله إلى لجنة الخارجية لدارسته وكتابة تقرير عنه، وكان ألبرت خياط بك، و شاكر غزالي بك من أعضاء هذه اللجنة ، التي عرضت تقريرها في جلسة ٢ أبريل من نفس السنة ، و رأت أن فكرة الوحدة وليدة الصلات العديدة التي تربط الشعوب العربية، و أن الميثاق أولي ثمرات الكفاح العربي نحو الوحدة ، و أنه يستجيب لرغبة الرأي العام في جميع الأقطار العربية ، وقد أملت اللجنة أن يكون من وراء نجاح جامعة الدول العربية تحقيق الأماني الوطنية للبلاد العربية جميعًا، وأن تضم الجامعة إليها البلاد العربية التي تم تنضم بعد الميثاق، ودعت المجلس إلي الموافقة عليه . وقد أخذ المجلس برأي اللجنة ، ووافق عليه النواب الأقباط مع غيرهم من أعضاء المجلس بعد سلسلة من المناقشات.

ثم أحيل مشروع القانون في ٣ أبريل إلي مجلس الشيوخ، الذي أحاله إلي لجنة الخارجية، وكان لويس أخنوخ فانوس أفندي عضوًا بهذه اللجنة ، التي بحثته ودعت المجلس إلي الموافقة عليه .

وقد ناقش أعضاء المجلس المشروع فتحدث لويس أخنوخ فانوس أفندي موضحًاً أن العروبة تشمل جميع سكان البلاد العربية من مسلمين ومسيحيين ويهود وغيرهم من أصحاب الأديان الأخرى الذين يشعرون مع مواطنيهم سكان تلك البلاد بالتضامن في الحياة الاجتماعية والثقافية وفي الحياة المعنوية أيضاً ، وأنها شخصية معنوية تشمل جميع سكان البلاد التي تعرف ببلاد العروبة ، إلا أنه نظر نظرة إنسانية إلي هجرة اليهود المضطهدين من أوروبا إلي فلسطين . و رأي أن تحل مشكلة فلسطين بدون التعصب ضد الصهيونية، مما أثار بعض الهياج داخل المجلس ثم رحب بالميثاق. ووافق النواب الأقباط مع غيرهم من أعضاء المجلس على تقرير اللجنة وميثاق جامعة الدول العربية وعلى ملاحقه. وبلا شك أن نظرة النائب الإنسانية ينتابها قصور كبير، فلم يكن يستطيع أن يفرق بين اليهودية كدين والصهيونية كحركة عنصرية استعمارية .

وإزاء الاعتداء على الشعب السوري واللبناني في مايو سنة ١٩٤٥م، من قبل القوات الفرنسية ، وتدميرها لمجلس النواب والأحياء والمساكن السورية. وافق مجلس الشيوخ بالإجماع على اقتراح تضمن تقرير المجلس لمبلغ من ميزانيته الخاصة للمساهمة في تعمير دار مجلس النواب السوري وتعويض أهالي الضحايا.

كما قام وهيب دوس نائب مجلس الشيوخ عن مديرية القاهرة وأخرون بتقديم مذكرة للمجلس يدعو فيها الحكومة المصرية إلى معارضة الاعتداء الفرنسي على بيروت ودمشق ، وإعلان مخالفته لميثاق جامعة الدول العربية والأمم المتحدة، ودعا الجامعة العربية والأمم المتحدة إلى الوقوف جديًا أمام هذه الاعتداءات وحل المشكلة، واحترام استقلال وسيادة الشعوب.

وكانت قضية مراكش من القضايا العربية أيضًاً، فعلى أثر تطبيق مبادئ ميثاق الأطلنطي انفجرت في مراكش حركة وطنية قومية في سنة ١٩٤٤م، تطالب بحريتها واستقلالها فقامت القوات الفرنسية باعتقال ونفي زعمائها إلي غرب أفريقيا وإلي الصحاري ، وعلي الرغم من ذلك فقد ظلت هذه الحركة تظهر بين الحين والآخر ، حتى قامت القوات الفرنسية في أوائل سنة ١٩٥١، وبالاعتداء على الكثير من المواطنين ، وقامت بنفي السلطان محمد الخامس بسبب تأييده للحركة الوطنية.

وهو ما دعا عدد من أعضاء مجلس النواب إلي تقديم اقتراح يستنكرون فيه وسائل العنف والقسوة التي ارتكبتها القوات الفرنسية في مراكش العربية ضد سلطانها وشعبها الباسل، مخالفة بذلك واجب رعاية الحريات العامة وحقوق الإنسان والشعوب، ويبدي المجلس عطفه علي الأمة المراكشية في جهادها من أجل استقلالها وحريتها، ويفوض المجلس رئيسه في إبلاغ هذا القرار لبرلمانات الدول الصديقة. وقد وافق النواب الأقباط مع غيرهم من الأعضاء بالمجلس على هذا الاقتراح.

كما وافق النواب الأقباط على الرغم من رفض بعض أعضاء البرلمان علي التصديق علي مشروع القانون الخاص بمعاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي وملحقها العسكري بين دول الجامعة العربية والذي تم التوقيع عليها في ١٧ يونيه سنة ١٩٥٠م، وكذلك البروتوكول الإضافي لها في ٢ فبراير سنة ١٩٥١م ، وهكذا يتضح مشاركة النواب الأقباط في العديد من القضايا العربية .



الإذاعات الأهلية.. قطعة من تاريخ منسي

بقلم: هدير مسعد

قبل إنشاء الإذاعة المصرية في ٣١ مايو عام ١٩٣٤ بوقت طويل كان المجتمع المصري خطا خطوات واضحة على طريق دخول الزمن الحديث. فجاءت الإذاعة لتكون الأداة الثانية بعد الصحافة على طريق توسيع دائرة الاهتمام بالمواطن وتوجيه وعيه وإدراكه، خاصة أن الإذاعة لا شك كانت دعمًا حقيقيًا وثورة في الاتصالات اللاسلكية في مصر، لان تأثيرها عامًا وواسعًا بخلاف الصحافة التي كانت محدودة الأثر لأنها قاصرة على جمهور القراء وهو قليل جدًا في بلاد تتفشي فيها الأمية آنذاك. وبمناسبة الاحتفال بتأسيس الإذاعة المصرية في ٣١ مايو ١٩٣٤، سنتناول "الإذاعات الأهلية" التي تُعد نواة بداية الإذاعة القومية في مصر.

أما عن بداية نشأة فكرة الإذاعات الأهلية في مصر فيذكر لنا حلمي شلبي في كتابة "تاريخ الاذاعة المصرية"، إن الفكرة لم تكن واردة قبل عام ١٩٣٢، وكانت الاجهزة اللاسلكية (الراديو) في مصر مملوكة لعدد قليل من الهواة الاجانب، ويقال أن أقدم جهاز لاسلكي تلقاها شخص يدعي أحمد صادق الجواهرجي عام ١٩٢٣ هدية من صديق ألماني له يدرس اللاسلكي، ولكنه لم يجد من يستمع إليه لعدم وجود أجهزة استقبال.

ولكن في ١٠ مايو ١٩٢٦ صدر مرسوم ملكي يحدد شروط حيازة الأجهزة اللاسلكية في مصر، وبمدة بث لا تتخطى الـ٤ ساعات بدأت الإذاعات الأهلية بثها أي قبل بث الإذاعة المصرية بـ٨ أعوام، من غرفة أو شقة



صغيرة على أقصى تقدير في القاهرة والاسكندرية لمستوطنين أوروبيين – أغلبهم من الإيطاليين واليونانيين- وقليل من المصريين، حيث كان معظم أصحاب تلك المحطات من التجار - خاصة أصحاب تجارة أجهزة الراديو- وكان الهدف من اقتناء هذه الأجهزة هو الترويج لمنتجاتهم وتشجيع الناس على شرائها .

ومع بداية الثلاثينات ظهرت أول إذاعة أهلية في القاهرة وهي إذاعة "مصر الجديدة"، وبعد عامين افتتحت محطة أهلية أخرى أوروبية هي إذاعة "سابو"، وفي عام ١٩٣٢ افتتحت "محطة راديو الأمير فاروق" ثم تلاها راديو مصر الملكية ثم راديو الأميرة فوزية وراديو صايغ ثم راديو مصر الحرة وراديو رمسيس وراديو القاهرة، وفى الإسكندرية افتتحت محطة راديو فيولا ثم تلاها راديو ماجستيك و راديو فريد وراديو فويس ثم راديو نافيرا، واستمرت الإذاعات الأهلية في إرسالها حتى توقفت عن الإرسال في ٢٩ مايو ١٩٣٤.

ملك الراديو.. حبشي جرجس:

استهدفت الإذاعات الأهلية سكان الحي الذي تبث منه، مثل محطة راديو "حبشي" الذي يُعد من أقدم الإذاعات الأهلية في مصر، أنشأ "حبشي جرجس" — وهو يُعد رائد المحطات الإذاعية الأهلية في مصر– الإذاعة من مخلفات جيوش الحرب العالمية الأولى وبعض الأجهزة القديمة التي وجدها بمحل "إلياس شقال"، بـ "وكالة البلح"، فصارح حبشي صاحب المحل إلياس بحاجته لهذه الأجهزة لإنشاء إذاعة محلية لكنه لا يمتلك ثمنها، فوافق إلياس على منح حبشي الأجهزة بالإضافة إلى مبلغ ٦٠٠ جنيهًا، على أن يصبح شريكاً معه في محطة الإذاعة، وانطلق البث الأول من غرفة بشارع فؤاد في حي شبرا، حيث منزل إلياس شقال تاجر وكالة البلح وشريك حبشي، وبدأ البث باشتراك نصف ريال للجمهور في مقابل أن يطلب المشترك ما يريد الاستماع إليه في خطاب موقع برقم اشتراكه في الإذاعة.

إلا أن الأمر لم يستمر طويلاً فقد اختلفوا وانتهت الشراكة بانسحاب إلياس وحل محله "إسماعيل وهبي" شقيق الممثل "يوسف بك وهبي" والدكتور "أحمد فريد الرفاعي" وظل سعر الاشتراك في الإذاعة نصف ريال، يتمتع المشتركين بالمحطة بميزة إذاعة الأغاني التي يطلبونها يومياً، فقد طل صوت "أسمهان" لأول مرة على الجمهور بإحدى أغاني السيدة أم كلثوم من خلال إذاعة "حبشي"، حسب ما قاله حبشي في لقائه مع مجلة المصور عام ١٩٥٩، "حضرت في اليوم التالي للإذاعة لتؤدي وصلتها الأولى وتقاضت ٧٠ قرشا".

ومن المواقف الطريفة التي تعرض لها "حبشي" أثناء عمله بالإذاعة، عندما جاءت سيدة ودفعت اشتراك بقيمة ٥٠ جنيها ليقطع حبشي البث في أي وقت ويبث لها أغنية "الجو رايق" لعبدالوهاب، و"الجو غيم" لصالح عبد الحي، تتواصل السيدة بالإذاعة عبر الهاتف لتطلب ميعاد بث الأغنية، حتى فوجئ حبشي باقتحام الشرطة للمحطة وإلقاء القبض عليه، واكتشف فيما بعد أن السيدة تبعث إشارات لأفراد عصابة تجارة المخدرات التي تترأسها لتبلغهم عما إذا كانت الشرطة متربصة بهم أم لا.

فوضي الإذاعات الأهلية وإعلاناتها:

مع الوقت راجت تجارة بث الإذاعات وانتشرت، فهناك إذاعات دفعها الجنون إلى تخصيص محطات لبث رسائل الحب والهوى كما فعل اليوناني "ريني" لمحبوبته الإيطالية، وهناك إذاعات أخرى أنشئت من أجل بث إعلانات ومضاربات تجارية بالإضافة إلى الأغنيات المبتذلة، وإعلانات عن راقصات كلوت بك وعوالم شارع محمد علي بل ووصل الأمر إلى الإعلان عن أماكن ممارسة البغاء وتقديم وصلات سباب لتصفية الخلافات الشخصية لمن يدفع.

كما استغل التجار الراديو كوسيلة للترويج لمنتجاتهم، خاصة تجار أجهزة الراديو، كما ذكر كتاب "وسائل الاتصال الحديثة من الجريدة إلى الفيسبوك" سذاجة بعض الإعلانات المذاعة في ذلك الوقت، مثل "الو – ألو.. اسمع يا أخينا أنت وهو فيه قنبلة انفجرت في شارع الموسكي دلوقتي، وبعد قليل يعلن المذيع: أن هذه القنبلة هي الأسعار المذهلة التي تبيع بها محلات الضبع للعب الأطفال."

ويصيح آخر "اسمع يا أخينا أنت وهو حدثت حريقة كبيرة في شارع شبرا.. وبعد قليل يقول "إن الحريقة لم تكن غير افتتاح خمارة الخواجة بنايوتي لبيع أصناف الخمور، وأنها تباع بأسعار زهيدة جدًا جدًا."

والواقع أن الإذاعات الأهلية برغم الرواج الذي حققته إلا أنه غلب عليها طابع الاضطراب و الفوضوية، وكانت الحكومة في هذه المرحلة معنية ببحث الشكاوي المرسلة إليها من الجمهور بسبب فوضي استعمال هذه الاجهزة، فبعض هذه الاجهزة تتداخل موجاته على بعضها البعض، وأخري لا ترعي تقاليد وعادات الجمهور فتضايقه بما لا يرغب في سماعه من عزف أو غناء أو ما إلي ذلك، أي أنها تقلق راحته. فتذكر جريدة البلاغ على سبيل المثال أن إحدى محطات الإذاعة الأهلية رفعت دعوي قضائية أمام المحكمة تطلب تعويضًا من محطة أخري لاعتدائها على موجاتها.

نهاية عهد الإذاعات الأهلية:

وفي ١٢ يولية ١٩٣٣ وتحت عنوان "الحكومة والراديو"

نشرت صحيفة الأهرام سلسلة تحقيقات وأخبار رفضًا لأداء الإذاعات الأهلية، دفعت توفيق باشا دوس وزير المواصلات آنذاك للإعلان بأن الوزارة ستستعين بالأمن العام حتى لا يتم استخدام الراديو على نحو يزعج المواطنين، ودعا أصحاب الإذاعات للقائه للاتفاق على مواعيد محددة للبث، ولم يلتزم أصحاب الإذاعات، إذ أنهم لن يتمكنوا من سداد أقساط أجهزة الراديو إذا لم تمد الحكومة فترات عمل الإذاعة إلى وقت متأخر لأن زبائنهم سينصرفون إلى المنازل للنوم، وبالتالي يقل عدد رواد المحال العمومية. وعادت الأهرام لتجري عدد من التقارير التي تُشير إلى صعوبة تحصيل الطلبة للعلوم بسبب ضوضاء الراديو، متواصلين مع وزير المعارف وقتها والذي اعترض أيضا على الراديو. وهذه المرة خرج نائب الأمن العام ليُعلن أن وزارة الداخلية ستقوم باتخاذ إجراءات حازمة وأن الحكومة لن تصمت وسوف تضع قريبًا تشريع سيكفل الراحة للجميع، وخرج حكمدار القاهرة ليعلن قراره بغلق المحال التي تُسبب ازعاج للجمهور بالإذاعات من غد، وتحمس خطباء المساجد لانتقاد عمل هذه الإذاعات التي تبث أماكن ممارسة البغاء علناً.

فلم تجد الحكومة بد من الدعوة لاجتماع عاجل لمواجهة هذه الإذاعات، وأعلن وزير المواصلات توفيق باشا أن الحكومة سوف تنشأ محطة إذاعية كبرى في الجيزة، وأنها سوف تسمح للملتزمين فقط من أصحاب الإذاعات الخاصة بالاستمرار في البث حتى إطلاق هذه الإذاعة الحكومية بعد ١٠ شهور من الآن، مع سحب تراخيص أية محطة مخالفة، وهو القرار الذي رفضه معظم أصحاب هذه الإذاعات، لكنهم لم يجدوا بد من الاستسلام، بعد ممارسة كل أساليب الاستعطاف بل وأحيانًا محاولات تأليب الرأي العام، انتهت بطلبها السماح بمنافستهم للإذاعة الحكومية، لكن توفيق باشا أعلن رفضه التام لكل هذه المقترحات، مطالبا إياهم بإزالة كافة تركيبات إذاعاتهم مع بداية بث محطة الإذاعة الحكومية في الساعة الخامسة إلا ربع من يوم الخميس الموافق الحادي والثلاثين من شهر مايو عام ١٩٤٣.

وفي ٢٩ مايو ١٩٣٤ صمتت الإذاعات الأهلية وتوقف بثها تمامًا، لتصبح موجات الأثير حكرًا على الحكومة وحدها.

ويُمكن القول أن المحطات الاهلية استطاعت أن توطد أقدامها في مصر وأن تمر في فترة الثلاثينات بأزهي عصورها، فقد كانت تتمتع بالاستقلال الكامل في عرض ما تراه مناسبًا من وجهة نظرها. وخلقت جوًا من الإذاعة والنشر لم تعرفه مصر إلا بعد دخول هذه الاجهزة كما أنها استطاعت أن تتعلم من أخطائها ومن شكاوي الجمهور العام وبدأت في تطوير نفسها ومناقشة موضوعات مهمة واستضافة شخصيات عامة مؤثرة من علماء ومفكرين ومطربين وغيرهم.

هذا ما يؤكده لنا حلمي شلبي في كتابه "تاريخ الإذاعة المصرية": أن الإذاعات الأهلية لعبت دورًا أكثر حيوية في تكوين الإنسان المصري، فالراديو كان يختصر المسافات ويمثل حدثاً فذًا بكل المقاييس، والدليل على ذلك ما كانت تبثه هذه المحطات الأهلية من برامج وموضوعات متنوعة ذات أهمية قصوي في مجال نشر الثقافة والبحوث الاجتماعية وتبسيط المعرفة العلمية والترويج للحركة التجارية والعناية بنقل جوانب الفن والموسيقي والغناء وغيرها". فعلى سبيل المثال في عام ١٩٣٢ تنقل لنا جريدة السياسة بث راديو (مصر الملكية) بالقاهرة، خلال أسبوع واحد عدة محاضرات عن حقوق المرأة لسلامة موسي، ولمحة عن المرأة الغربية للدكتور علي مظهر، وكيف تقضي أوقات الفراغ لفؤاد صروف، وآراء في التربية للسيدة بطلة حكيم.

كما اهتمت جميع المحطات الأهلية بإذاعة القرآن الكريم وأتاحت الفرصة أمام جيل المقرئين الرواد لنقل أصواتهم إلي الجمهور في هذه الفترة المبكرة، وجعلت افتتاحيات إذاعاتها بآيات القرآن الكريم.

وهكذا يبدوا واضحًا أن المحطات الأهلية كانت تطور أدائها بسرعة مذهلة، سواء بالنسبة لإمكانياتها الهندسية

كمحطات صغيرة أو بالنسبة لدورها الاجتماعي من خلال تطوير البرامج. الأمر الذي أدي إلي محاولات الحكومة إلي احتكارها للإذاعة والسيطرة عليها، حتي انتهي الأمر في ٣١ مايو ١٩٣٤ بأول بث من الإذاعة المصرية القومية.

ماركوني.. وبداية الاذاعة المصرية القومية:

خشي الاحتلال الإنجليزي من قوة وانتشار الإذاعات الأهلية، التي تستطيع توحيد الخطاب المصري، أو درايتهم بما يدور حولهم في العالم من خلال إذاعات خارجية، فقد اعترض المندوب السامي البريطاني على إنشاء إذاعة مصرية، لكن رئيس مجلس الوزراء إسماعيل باشا صدقي رجل كانت لديه القدرة على الإقناع بما يريد، وقد كان يريد ألا تفوت الحكومة المصرية أرباح هذه الإذاعات من قيمة الاشتراكات والإعلانات، فقد بحث عن مفتاح لأبواب المندوب السامي المغلقة في وجه المقترح.

واختار "شركة ماركوني" بريطانية الجنسية، لكن المندوب السامي تمهل في القبول ملقيًا بسقف المفاوضات إلى نقطة أخرى، وهي أن شركة ماركوني تتمتع باستقلالية نسبية، فطرح إسماعيل باشا صدقي ورقة أخرى بأن تشكل لجنتين، لجنة للبرامج العليا تكون مهمتها متابعة المحتوى بما يتوافق مع هيئة الإذاعة والحكومة ويرضي المواطنين، ويكون أعضاؤها الخمسة، ثلاثة تعينهم الحكومة واثنان للشركة، وتكون شركة ماركوني وكيلة عن الحكومة في إدارة الإذاعة لمدة عشر سنوات قابلة للتجديد، وعلى أن يجنح المحتوى نحو المواد التعليمية والفنون بشكل كبير، وتتلقي الشركة من الحكومة مقابل الإدارة والإنفاق على البرامج.

واستطاع صدقي أن يكسب موافقة المندوب السامي البريطاني، لكنه واجه عاصفة انتقادات من البرلمان بعد اعتماد مبلغ ٢٠٠٠ جنيه لإنشاء محطتي الإذاعة الحكومية واتهم محمد صالح بك عضو مجلس النواب الحكومة بإهدار جهود المصريين الشرفاء الذين أنفقوا أموالهم الخاصة على إنشاء إذاعات وطنية، بينما الحكومة تقرر منح ماركوني البريطانية حق احتكار للإذاعة، وأيده كثرين من أعضاء البرلمان، لكن صدقي باشا خرج عليهم قائلاً، إن شركة ماركوني مستخدم لدى الحكومة المصرية وأن الحكومة المصرية لا تمتلك الوسائل الفنية اللازمة لإنشاء محطة لاسلكية للإذاعة لذلك ستعهد لماركوني بإنشائها في أبو زعبل.

وفي يوليو١٩٣٢ وافق مجلس الوزراء على أن تتولي شركة ماركوني التلغرافية اللاسلكية كوكيل عن الحكومة المصرية إدارة الإذاعة وتشغيلها وصيانتها وإعداد البرامج والمذيعين، وبدأ العمل في إقامة محطات الإرسال وكذلك الاستوديوهات الإذاعية في مبني شركة ماركوني في شارع علوي خلف البنك الأهلي المركزي، حيث أقامت الشركة خمسة استوديوهات، وشهدت هذه المرحلة إشراف وزارة المواصلات على الإذاعة حتي تم إنشاء وزارة الشؤون الاجتماعية في ٢٠ أغسطس١٩٣٩ فأصبحت الإذاعة إحدى إداراتها، وفي١٩ ابريل١٩٤٢ أصبحت الإذاعة تابعة لإشراف وزارة الداخلية وعاد الإشراف علي الإذاعة لوزارة الشؤون الاجتماعية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية على أن يبقي لوزارة المواصلات اختصاصها المتمثل في الإشراف على صيانة أجهزة المحطة وإدارتها من الناحية الفنية وتحصيل رسوم الرخص والتفتيش عليها.

وانتهي الأمر بتمرير قرار وزير المواصلات على جثة الإذاعات الخاصة، صاحبة الخبرة التي أنكرها رئيس الوزراء، ليبدأ فصل جديد بإنشاء الإذاعة الحكومية الواحدة.



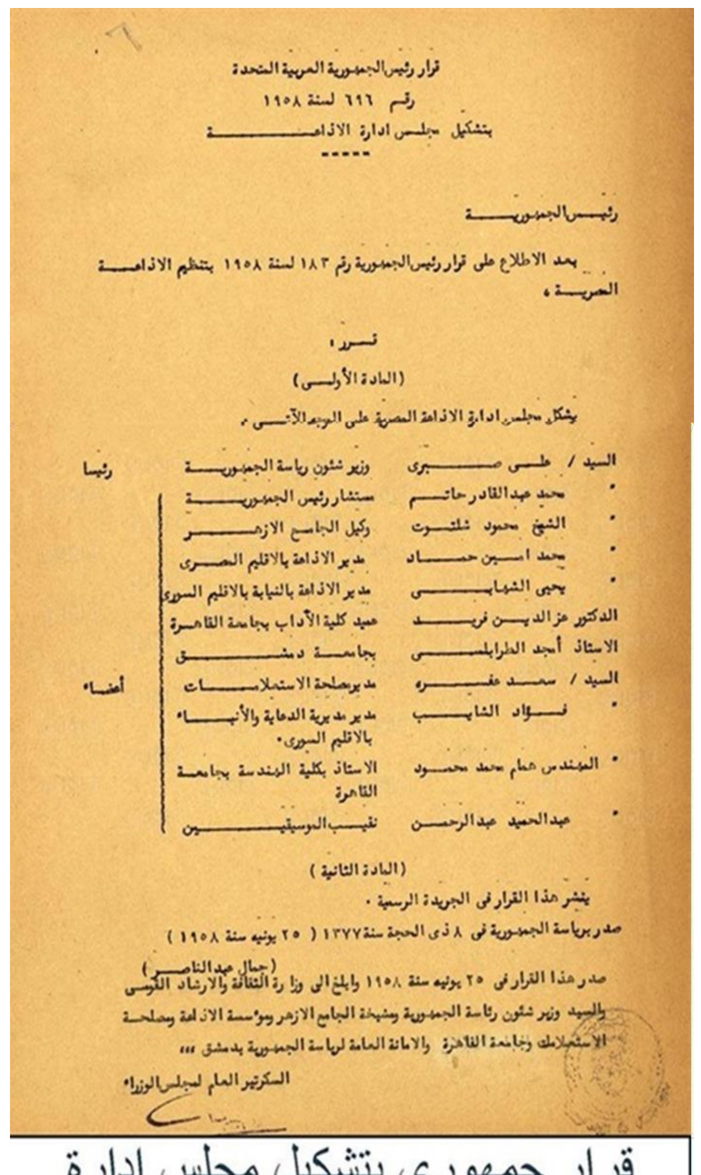
تمصير الاذاعة:

كان العقد المبرم بين الحكومة المصرية وشركة ماركوني البريطانية ينص على أن تسلم الشركة للحكومة المصرية الإذاعة بمحطاتها و استوديوهاتها في ٣١ ديسمبر١٩٤٩، ولكن الحكومة فسخت هذا العقد في باريس ١٩٤٧، وشكلت لجنة لتسلم الإذاعة من شركة ماركوني في٢٧ مارس ١٩٤٧، وفي ١٨ مايو ١٩٤٧ أنشئت إدارة الإذاعة اللاسلكية المصرية وتسلمت الحكومة المصرية محطة الإذاعة وأصبحت مصرية شكلاً ومضموناً منذ ٣١ مايو ١٩٤٦.

وشهدت هذه الفترة انتقال الإذاعة عام ١٩٤٨ من مقرها في ٥ شارع علوي إلى شارع الشريفين بطاقة ١٣ ستوديو، وشهدت هذه المرحلة أيضا صدور أداء تشريع متكامل للإذاعة والقانون رقم ٩٨ لسنة ١٩٤٩، وأصبحت بمقتضاه الإذاعة هيئة مستقلة ذات شخصية معنوية تلحق برئاسة مجلس الوزراء.

ثم نقلت تبعية الإذاعة المصرية بعد ذلك من رئاسة مجلس الوزراء إلى وزارة الارشاد القومي في١٠ نوفمبر١٩٥٢ ، وفي١٥ فبراير ١٩٥٨ صدر القرار الجمهوري رقم١٨٣ لسنة ١٩٥٨ باعتبار الإذاعة المصرية مؤسسة عامة ذات شخصية اعتبارية وإلحاقها برئاسة الجمهورية، وأصبحت عام١٩٦١ من المؤسسات العامة ذات الطابع الاقتصادي وسميت المؤسسة المصرية العامة للإذاعة والتليفزيون، وفي عام ١٩٦٢ تم ضمها إلي وزارة الإرشاد القومي وصدر عام١٩٧١ القرار الجمهوري رقم١ لسنة ١٩٧١ بإنشاء اتحاد الإذاعة والتليفزيون.

وفي الختام يُمكن القول أن حتى ثمانينات القرن الماضي كان الراديو من القطع الأساسية في كل منزل، وكانت الأسر تتجمع حول هذا الجهاز البديع لتستمع إلى الأغاني والمسلسلات والبرامج المنوعة، وتتعرف على ما يجري من حولها في العالم، ،لا يستطيع أحد أن ينكر أن الراديو غير العالم بأسره، إذ أثر هذا الابتكار في كل الثقافات والمجتمعات من حول العالم، وكان الوسيلة الوحيدة للاتصال والترفيه لأكثر من ٥٠ عاماً.



قرار رئيس الجمهورية العربية المتحدة
رقم ٦١٦ لسنة ١٩٥٨
بتشكيل مجلس ادارة الاذاعة

رئيس الجمهورية

بعد الاطلاع على قرار رئيس الجمهورية رقم ١٨٣ لسنة ١٩٥٨ بتنظيم الاذاعة المصرية ،

قرر :

(المادة الأولى)

يشكل مجلس ادارة الاذاعة المصرية على الوجه الآتى :

السيد / على صبرى	وزير شئون رياسة الجمهورية	رئيسا
" محمد عبد القادر حاتم	مستشار رئيس الجمهورية	أعضاء
" الشيخ محمود شلتوت	وكيل الجامع الازهر	
" محمد امين حماد	مدير الاذاعة بالاقليم المصرى	
" يحيى الشهابى	مدير الاذاعة بالنيابة بالاقليم السورى	
الدكتور عز الدين فريد	عميد كلية الآداب بجامعة القاهرة	
الاستاذ أمجد الطرابلسى	بجامعة دمشق	
السيد / محمد عفيفى	مدير مصلحة الاستعلامات	
" فؤاد الشايب	مدير مديرية الدعاية والأنباء بالاقليم السورى.	
" المهندس عصام محمد محمود	الاستاذ بكلية الهندسة بجامعة القاهرة	
" عبد الحميد عبد الرحمن	نقيب الموسيقيين	

(المادة الثانية)

ينشر هذا القرار فى الجريدة الرسمية .

صدر برياسة الجمهورية فى ٨ ذى الحجة سنة ١٣٧٧ (٢٥ يونيه سنة ١٩٥٨)

(جمال عبد الناصر)

صدر هذا القرار فى ٢٥ يونيه سنة ١٩٥٨ وابلغ الى وزارة الثقافة والارشاد القومى والسيد وزير شئون رئاسة الجمهورية ومشيخة الجامع الازهر ومؤسسة الاذاعة ومصلحة الاستعلامات وجامعة القاهرة والامانة العامة لرياسة الجمهورية بدمشق ""

السكرتير العام لمجلس الوزراء

قرار جمهوري بتشكيل مجلس إدارة الإذاعة سنة ١٩٥٨ م

بقلم: عطا درغام

نايري زاريان
شاعر الاشتراكية الأرمنية
(ديسمبر ١٩٠٠ - يولية ١٩٦٩)

إن أفضل وصف أدبي لأعمال نايري زاريان بأنها نوع من التأريخ الفني للتاريخ البطولي للشعب الأرمني، وحياته ونضاله في الفترة السوفيتية؛ فهو شاعر وكاتب مسرحي جاء إلى الأدب وموضوعه الرئيسي - مصير أرمينيا الاشتراكية - ، حيث عمَّت أفكاره حول الناس، ماضيهم وحاضرهم في كل أعماله.

طفولة صعبة

ولد نايري زاريان في ٣١ ديسمبر ١٩٠٠م في قرية "خاراكونيس"، مقاطعة "ڤان" بأرمينيا الغربية، وكانت طفولته صعبة كما ذكر في مذكراته "الحياة الثانية" : " كان ابن عائلة فقيرة، وكان مشهورًا في القرية كواحد من أكثر أبناء خاراكونيس موهبة، وتوفي والداه في وقت مبكر، تاركينه وأخته للاعتماد على خالتهما ، وكان والده فلاح لا يملك أرضًا ، مما جعل زاريان فريسة للحياة الصعبة والفقر فيقول: لم أكُن أعرف أيام الهم من الطفولةِ والشَّباب الخفيف بدون حزن. فوق الدردار البري لعواصف صاخبة في شبابي، هزَّ جذعها."

وبسبب الاضطهاد التركي تم تهجيره مع الآلاف من سكان خاراكونيس خلال الإبادة الجماعية حتى وصل إلى أرمينيا الشرقية مع أخته، التي فقدها في عام ١٩١٥م. ووجد ملاذًا في يريڤان وديليچان في دور الأيتام ، ومكث فيها بعد أن تلقى تعليمه الأولي في مدارسها حتى عام ١٩٢١م. و تخرج من قسم التاريخ في جامعة ولاية "يريڤان" في عام ١٩٢٧م، ثم أكمل



دراساته العليا في القسم الأدبي في أكاديمية لينينچراد الحكومية للفنون في عام ١٩٣٣م.

المناصب الأدبية والسياسية

في عام ١٩٢٢م، انضم إلى رابطة الكتاب البروليتاريين في أرمينيا، فدخل المعركة الأدبية عندما واجه الأدب الأرمني السوفيتي رياح التحديث التي أتى بها الأدب "البروليتاري"، والتي سرعان ما سحقها سيطرة الدولة في الفترة الستالينية. وخلال الفترة من عام ١٩٢٧م ، وحتى عام ١٩٢٨م، كان السكرتير المسؤول لمجلات" Ashkhatank "و"Anastvat" و" المناصب الأدبية"، وخلال الفترة من عام ١٩٣٤م ، وحتى عام ١٩٣٦م تولي رئاسة تحرير مجلة " الجيل الأدبي"، وانتخب السكرتير المسؤول لرئاسة اللجنة المنظمة لاتحاد كتاب أرمينيا في عام ١٩٣٣م، و نائب المؤتمر الأول لعموم الاتحاد للكتاب السوڤييت عام ١٩٣٤م . وفي الفترة (١٩٤٤-١٩٤٦م) ، كان رئيس اتحاد الكتاب الأرمن ، وعضوًا في اللجنة السوفيتية لحماية السلام، ورئيس اللجنة

الأرمنية لحماية السلام، وفي الفترة (١٩٥١-١٩٥٨) كان نائبًا لمجلس السوفيات الأعلى لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية.

علي خطي ستالين

بعد صعود ستالين إلى السلطة، انحاز زاريان كليًا إلى السلطة ، وحازت قصيدته "ستالين" على جائزة لينين الحكومية في عام ١٩٣٥م، وبعد وفاة أجاسي خانجيان، السكرتير الأول للحزب الشيوعي الأرمني في يوليو ١٩٣٦م، قرر إدانة ما يُسمى بالميول "القومية والتروتسكيية" لـ بعض من رعايا خانجيان وأفضل الكُتاَّب في ذلك الوقت ، مثل تشارنتس، وأكسيل باكونتس، وكثيرين غيرهم ، في مقال نُشر بعد أسبوع، واختتمها بالبيان التالي:" إن الطريق الحقيقي لأدب أرمينيا السوفيتية هو طريق الواقعية الاشتراكية، طريق أخوة الشعب ومجتمع بلا طبقات، طريق لينين وستالين."

برز نشاط زاريان في الفترة (١٩٣٦-١٩٣٧)، عندما تم استهداف المثقفين الأرمن السوفيت البارزين، بالقبض عليهم أو التصفية الجسدية، أو النفي إلى سيبيريا بتهم ملفقة تتعلق بالانحراف التأمري أو الأيديولوجي ، مما أكسبه انتقادات شديدة بعد وفاة ستالين (١٩٥٣). ومع ذلك، تم اعتقاله عام ١٩٣٧، لكنه أنقذ نفسه بكتابة رواية "هاتساڤان" التي تدعو إلي إضفاء الطابع الجماعي على الاقتصاد، الذي نفَّذه ستالين في أوائل الثلاثينيات.

وخلال الحرب العالمية الثانية ، عندما تم الخلط بين القومية والوطنية السوفيتية لفترة وجيزة ، نشر زاريان أعمالًا من هذا النوع أكسبته بعض قصائده الوطنية ، بالإضافة إلى مسرحيته " آرا الجميل" (١٩٤٤) ، ومع ذلك ، بدأ في فقدان تأثيره تدريجيًا في الحياة الأدبية بعد عام ١٩٥٣م، ورغم ذلك استمر في نشر كتب الشعر والنثر حتى نهاية حياته.

وخلال اجتماع لاتحاد الكتاب حول " تمجيد الشخصية في عهد ستالين " ، ناقش زاريان الكُتَّاب بعنف ، مع تطاير الاتهامات من واحدة إلى أخرى. وبحسب ما ورد دافع عن نفسه قائلاً: "حتى إساهاكيان أشاد بتمجيد ستالين".

أجاب أڤيتيك إساهاكيان (١٨٧٥-١٩٥٧) ، الذي كان رئيس الاتحاد منذ عام ١٩٤٦ وشخصية بارزة في الشعر الأرمني: " الرفيق نايري تحدث للتو عن الجزية. أقترح: دعونا نستعيد تلك الإشادات من كتاباتي وكتابات نايري ، ونرى ما تبقى تحتها " ...

ويخفت صوت الشاعر نايري زاريان ، ليرحل عن عالمنا في الثاني عشر من يولية عام ١٩٦٩م.

إبداعه الأدبي

خطى أولى خطواته الأدبية في دار الأيتام ، ونشر قصيدته الأولى عام ١٩١٨ في جريدة تفليس " ڤان- توسب"، وكتب قصائد "هرانوش" (١٩٢٥)، وفي ١٩٢٦ نشر المجموعة الأولى "في الأرض الزرقاء للقناة "، والتي أفسح فيها مزاج الكآبة الغامضة الطريق لأغاني النضال والعمل، وكتب عن القنوات ومحطات الطاقة الكهرومائية والآلات الزراعية والعلاقات الجديدة بين الناس وإحياء الحياة، وتتميز هذه المجموعة بالتجريد الكوني والتقنية. وكذا " أيام نوفمبر" (١٩٢٦) ، و"بناة " (١٩٢٧) التي تناولت الحرب الأهلية والتحولات الاجتماعية خلال سنوات العمل الجماعي .

وكتب قصائد "صخرة روشان" (١٩٣٠) التي صورت المقاومة الاشتراكية لقرية أرمنية، و" ساكو ميكينيان" (١٩٣٣)، ثم كتب القصائد التي جاءت في مجموعتي "الضربات" (١٩٣٣)؛ فكانت خطوة إلى الأمام في إبداعه، وتضمنت قصائد وأشعار من (١٩٢٦-١٩٣٠)، يرتبط محتواها الرئيسي بموضوعات التحول الاشتراكي للبلد والحرب الأهلية ، والقصيدة غير المكتملة " الحديد الزهر"، وقصائد " الطنين"، و"عند التشكيل"، و"ولدت حياة جديدة "، تتناول ظواهر الواقع السوفيتي وعلم النفس البشري الجديد، و" أمروتس" (١٩٣٥) تدور حول مبدعي أرمينيا المنبعثة من جديد التي تصور الواقع الجديد. وكتب رواية "هاتساڤان" (١٩٣٧)، التي جلبت له الشهرة، حيث أشعلت إبداعاته أثناء الحرب حماس الوطنية في قلوب القراء، وساعدتهم على العيش وهزيمة العدو.

وتشهد أشعار زاريان مزيدًا من التطور في شعره الغنائي في الثلاثينيات، تمتيز شعره الخطابي بالزخم العنيف وحرق المشاعر، حيث بدأت مشاكل الفن وأيديولوجيته ومهمة الشاعر المدنية واستخدام الأدب الكلاسيكي تحتل مكانة مهمة في أعمال زاريان، في سنوات تشكيل واقع جديد ؛ محاولًا تحديد مكانة الفنان في حياة الناس ، مما حدا به إلي تأليف سلسلة من القصائد : "بانثيون" و" الفردوسي" (١٩٣٤) ،" رأسان عبقريان" (١٩٣٤) ، أ.س.بوشكين (١٩٣٦) ، "كوميتاس " (١٩٣٩).
و في أواخر عشرينيات القرن الماضي ، تحول إلى الهجاء ، الذي احتل موقعًا مهمًا في أعماله كما في : " ڤاردان فاراچيان" (١٩٢٩)، و "التاريخ القديم" (١٩٣٤)، " أبطال الرواية" (١٩٣٥)، وغيرها .
احتلت الصورة الملحمية لأرمينيا السوڤيتية المكانة العالية في أعمال هذه الفترة: "يريڤان" ، و"جرين سونج" ، و"سيڤان"، و"إحياء" ، وفي هذه القصائد يذكر زاريان أن إحياء البلاد هو نتيجة ازدهار غير مسبوق للقوى الإبداعية للشعب في ظل الاشتراكية، ولقد أثرت وجهة النظر هذه بلا شك على تطور الشعر الأرمني الاشتراكي في الثلاثينيات ، وتم تحديد الصورة الإبداعية لزاريان، كشاعر منبر، مقتنع وعاطفي للنظام الاشتراكي، كتب فيها بطاقة إبداعية لا تُقهر جميع إبداعاته التي تحول فيها إلى مجموعة أشكال متنوعة.
أصبحت فكرة حب الوطن الفكرة المهيمنة لعمل الكاتب خلال سنوات الحرب، بعد أن بدأ تاريخه بقصيدة " الأرض الأصلية " (١٩٤١) ، أكملها بعمل "٩ مايو" (١٩٤٥) ، وخلال زياراته للجيش كتب "في المخبأ "و " في المقدمة " و "جارنيك خاتشاتريان" ، وقصائد أخرى من النوع الروائي الوثائقي .
كذلك، تأثر الشعر فترة الحرب بالكلمات الحماسية والتي تُمجد وحدة الشعوب السوفيتية: " نحن معكم يا موسكو" ، " الاتحاد السوڤيتي" ،" لن نتخلى عن موسكو"، وكانت ذروة الإبداع في هذه الفترة قصيدة "صوت الوطن الأم" (١٩٤٢) ، حيث يفهم المؤلف ماضي وحاضر الشعب الأرمني: اكره عَدوكَ بِقوةٍ مثلَ نَهرٍ أشعثٍ يَندفعُ مِن الجِبالِ ، لتجدَ السَّلامَ فِي الوادي. وكذلك قصائد " معركة " (١٩٤١)، و"فريچ" (١٩٤٢)، و" شكاكسي ثوچوف "، و"رقصة الخلود" (١٩٤٢) مخصصة للمدافعين الأرمن عن لينينچراد، وقصيدة " ابن الغضب " (١٩٤٢) وصف مآثر نيلسون ستيپانيان، بطل الاتحاد السوڤيتي مرتين خلال الحرب (١٩٤٣)، وحظيت قصيدته " الصوت المحلي" (١٩٤٣) بالتقدير العالمي.
ويُؤكد زاريان أن الفن مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالحاضر، ورأى التطور الإضافي للشعر ليس في التكرار اللانهائي للموضوعات "الأبدية"، ولكن في الفهم الفني للظواهر التاريخية الجديدة. وظهر ذلك فى أعماله في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي، غالبًا ما توجد سطور تؤكد على فهم وحدة الخالق والشعب : "أنا شاعرك"، "أنا مطربك"، " لقد منحني الناس اللقب المقدس شاعر". ونشر أيضًا الكثير من المقالات الصحفية، من بينها سلسلة مقالات " الخط الأمامي" (١٩٤٢).
وعند هذا الحد ، تأتي المأساة الملحمية "آرا الجميل" (١٩٤٤)، التي تحكي قصة الصراع بين الملك الأرمني آرا الجميل والملكة الآشورية شاميرام . ولم يركز الكاتب على قصة الحب المأساوي كما فعل العديد من المؤلفين الآخرين، بل وضع الخلفية التاريخية، والمواجهة بين أرمينيا وآشور في المقام الأول، وتظل ملحمة زاريان وفية لروح أسطورة شاميرام وآرا، كاشفة عن قصة نضال

الشعب الأرمني من أجل الحرية والاستقلال بطريقة مختلفة.

وخلال الفترة (١٩٥٠-١٩٥٩)، زار العديد من دول العالم ، ونشر العديد من كتب الرحلات ، من بينها سلسلة "اليابان" في سنوات ما بعد الحرب. كما كتب في رواية السيرة الذاتية ، فكتب رواية "السيد بيتروس ووزرائه" (١٩٥٦)، والتي تصور العملية المعقدة لتشكيل النظرة العالمية لجيل الشباب في الظروف المأساوية لأرمينيا، كاملة من التناقضات الداخلية. ومن بين أعمال زاريان الدرامية كوميديا " بالقرب من المصدر"(١٩٤٨) و "التجربة" (١٩٥٠) و كذا قصيدة " أرمينيا " التي كُتبت بشعور وطني. كما عرض المسرح الأرمني له "آرا الجميل" و "القناع المحترق" و "بالقرب من المصدر" و "التجربة" و "أرتاڤازد وكليوباترا"، وفي عام ١٩٨٠ ، قام مسرح يريڤان الذي يحمل اسم جابرييل سوندوكيان بعرض مسرحية "هاتساڤان". ومن بين الأعمال الجديرة بالاهتمام في الفترة الأخيرة للكاتب إعادة رواية نثرية للقصيدة الملحمية "ديڤيد الساسوني"(١٩٦٦) ومجموعة قصائد "أنا في انتظارك" (١٩٦٨) .

نماذج من أشعاره الأرمنية

لِماذا لا تتحدثين الأرمنية ...أنا أنسجُ أغنيةً لكِ. حواجبُك فخورةٌ ومتقوسةٌ ، أنت تتحدثين لغة الجبلِ الأرمنية لماذا لا تتحدثين الأرمنية؟

أنسجُ أغنيةً من أجلكِ .أنتِ لا تفهمين لُغتي .أنا غريبٌ، غريبٌ عن رَوحكِ ،لكن متحمسًا لرؤيتك، أنسجُ أغنيةً لك.

حواجبك فخورةٌ ومقوسةٌ، معابُد الأرمن الشاهقةِ ، ونظراتك تُغربل الصَّيف. عيناك من حايك حواجبك فخورة و مقوسة. أنت تتكلمين لغة الجبل الأرمنية ، مثل البخران بخفة ، لطفك أرمني للغاية، مديحك أرمني للغاية، أنت تتحدث لغة الجبل الأرمنية، لماذا لا تتحدثين الأرمنية؟

حلقت بفرح يا حبيبتي ،غنى لك بيل تهويدة، شاهدت ماسيس بشكل مهيب، لماذا لا تتحدثين الأرمنية؟

بيت الأب

كان لدي حلم جميل الليلة الماضية. كنت أقوم بإصلاح منزلي الأصلي، ففتحت سماء طفولتي علي، وكان هناك فجرٌ في روحي. كانت والدتي هناك، وعيناها ساطعتان، والجدول كان يتحدث بلغتها الأم، وكانت شجرة قديمة تحترق في الفناء ...كان الأمر مألوفًا جدًا ، وكذلك كان الربيع، بدت أشعة الشمس المتساقطة من الأرض كمفتاح ذهبي لروحي، كانت الشمس تنظر إلي بعيون الأمومة، وكان العالم حلوًا ومفهومًا.





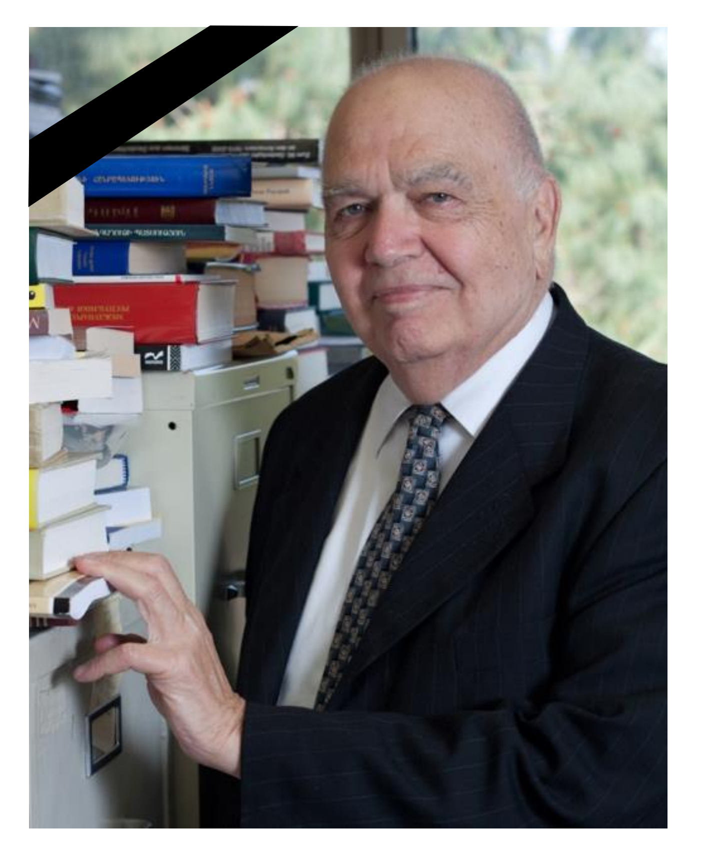
بقلم: على ثابت صبري

وداعاً ريتشارد هوفهانيسيان
(٩ سبتمبر ١٩٣٢ - ١٤ يولية ٢٠٢٣)
(مؤرخ أرمينيا)

رحل عن عالمنا المؤرخ الأرمنى الكبير السيد / ريتشارد هوفهانيسيان في ١٠ يولية ٢٠٢٣، والذى برحيله فقدت الأسرة التاريخية الأرمنية والعالمية ركيزة مهمة من ركائزها الأساسية في مجال الدراسات الأرمنية. ولد الفقيد في ٩ سبتمبر ١٩٣٢م في مدينة تولاري، بالقرب من فريسنو، كاليفورنيا ، لعائلة أرمنية ناجية من جحيم الإبادة الجماعية. وحصل على بكالوريوس التاريخ عام ١٩٥٤م من جامعة كاليفورنيا، كما حصل على درجة الدكتوراه في فلسفة التاريخ عام ١٩٦٦م من الجامعة نفسها. كما انضم الباحث الشاب إلى هيئة التدريس في جامعة كاليفورنيا عام ١٩٦٢م، وفي عام ١٩٨٦م تم تعيينه أول رئيساً لكرسي التاريخ الأرمني الحديث برعاية "المؤسسة التعليمية الأرمنية"، كما حصل على العديد من الجوائز لمساهمته في النهوض بالأنشطة العلمية والدراسات الأرمنية. وتم تضمين معلومات سيرته الذاتية في كتابي "Who's Who in America" و"Who's Who in the World".

كان هوفهانيسيان مؤرخاً وطنياً محايداً، وقدم الكثير والمهم للدراسات الأرمنية، فكان باكورة أعماله الجمهورية الأرمنية الأولى (١٩١٨- ١٩٢٠م)، كما نُشرت أطروحته للدكتوراه، "أرمينيا على طريق الاستقلال"، في عام ١٩٦٧م .

كان عمدة الدراسات الأرمنية يتمتع بالحيادية، فدرس بعمق الإبادة الجماعية للأرمن باعتبارها الجريمة الرئيسية في القرن العشرين، بل أكثر من هذا، الجريمة النموذج



لمصطلح الإبادة، تضمنت دراسات السيد هوفهانيسيان مكانة جمهورية أرمينيا الأولى عند الأرمن، كما عمل على بث الروح القومية لدى شباب الارمن في المهجر، وما يُعنيه أن تكون أرمنيًا في المهجر. حيث استطاع تأسيس برنامج الدراسات العليا في التاريخ الأرمني في جامعة كاليفورنيا، لوس أنجلوس، مما تمخض عنه جيل عظيم من الباحثين المتميزين .

ركزت أعمال هوفهانيسيان الأساسية على قضايا تاريخ القوقاز والشرق الأوسط. خاصة أرمينيا في القرن العشرين ومنها : جمهورية أرمينيا (٤ مجلدات ، جمهورية أرمينيا ، المجلد ١ (١٩٧١م) والمجلد الثاني (١٩٨٢م)، المجلدان

الثالث والرابع (١٩٩٦م) مطبعة جامعة كاليفورنيا)، المحرقة الأرمنية، كامبريدج، ماساتشوستس، الأرمنية مطبعة التراث(١٩٨٠م)، الشعب الأرمني من العصور القديمة إلى الحديثة، مجلدين. نيويورك. شارع. مطبعة مارتن، ١٩٩٧م ، ذكرى وإنكار. حالة الإبادة الجماعية للأرمن. ديترويت: مطبعة جامعة واين ستيت ، ١٩٩٨م.

فكرياً قام هوفهانيسيان بتنظيم مجموعة من المؤتمرات الرائعة المخصصة للمناطق التاريخية لأرمينيا الغربية وكيليكيا في جامعة كاليفورنيا منذ عام ١٩٩٧م، والتي جمعت علماء بارزين من جميع أنحاء العالم لتقديم أعمال متعددة التخصصات في هذا الموضوع، كما لعب دورًا نشطًا في المؤتمرات العلمية التي عقدت في أرمينيا وفي مختلف بلاد المهجر، وتحدث عن التاريخ الأرمني في القرن العشرين .

أصبح هوفهانيسيان عضواً في مجلس إدارة العديد من المنظمات العلمية والعامة ، بما في ذلك مؤسسة **Facing History and Ourselves**، والمعهد الدولي للهولوكوست والإبادة الجماعية، ومؤسسة دراسة العمارة الأرمنية، ومركز مجروبليان لحقوق الإنسان في كلية كليرمونت ماكينا. وجمعية الدراسات الأرمنية التي أسسها في السبعينيات. وفى عام ٢٠١١م، فاز بجائزة "المعلم الأكثر إلهامًا" من رابطة خريجي جامعة لوس أنجلوس. وهو معروف أيضًا بمشاركته في الأنشطة المدنية والسياسية للأرمن ، فضلاً عن عمله في دمج الإبادة الجماعية للأرمن في مؤسسة **Shoah**.

كما أجاب السيد هوفهانيسيان على سؤال جد مهم فى إحدى المقابلات، عما إذا كان ممتنًا لأولئك الأشخاص الذين ربما ساعدوا الناجين طوال الوقت فى رحلة الهروب الكبير من الإبادة الأرمنية، حتى لو عن طريق الرشوة: "كما تعلم ... الإنكار لا يسمح للأرمن بتقدير الأتراك الطيبين، وكان هناك الكثير منهم. لقد أجريت أكثر من ٨٠٠ مقابلة تاريخية شفوية مع ناجين، وفي كل حالة تقريبًا، ساعدهم مسلم صالح أو حاول مساعدتهم. وسواء استمرت تلك المساعدة يومًا أو أسبوعًا أو عامًا، نتيجة لذلك، تم إنقاذ أرمني ". ثم توقف ثم أضاف: "ممتن ... دعنا نقول فقط إنني أقدر ذلك".

كما أسس عائلة رائعة وعلى رأسها الأبن رافي هوفهانيسيان، أول وزير خارجية لجمهورية أرمينيا (الثالثة)، وأحد أحفاده، كارين، هو مخرج وكاتب سينمائي يعيش في لوس أنجلوس ويريفان. أطفاله الآخرون، أرمين وآني وكارو، ينشطون في المجتمع الأرمني والمبادرات المدنية .

ستظل أعمال السيد هوفهانيسيان خالدة ، وملهمة للكثير من الدراسين والباحثين عن الحقيقة فى موضوع الإبادة الأرمنية والتاريخ الأرمنى الحديث ، العظماء لا يموتون تبقى أعمالهم شاهدة على عطائهم وإسهاماتهم، لذا، فلترقد روحك في سلام سيد هوفهانيسيان، ستظل أعمالك باقية نبراساً ودليلاً .

وداعاً ريتشارد هوفهانيسيان (٩ سبتمبر ١٩٣٢ - ١٤ يولية ٢٠٢٣)

(مؤرخ أرمينيا)

